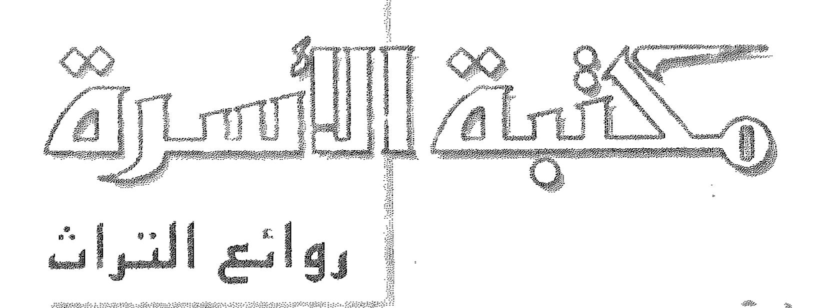


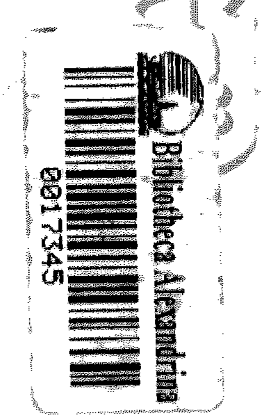
المختار من تاريخ الجبرتى

للشيخ عبد الرحمن الجبرتى

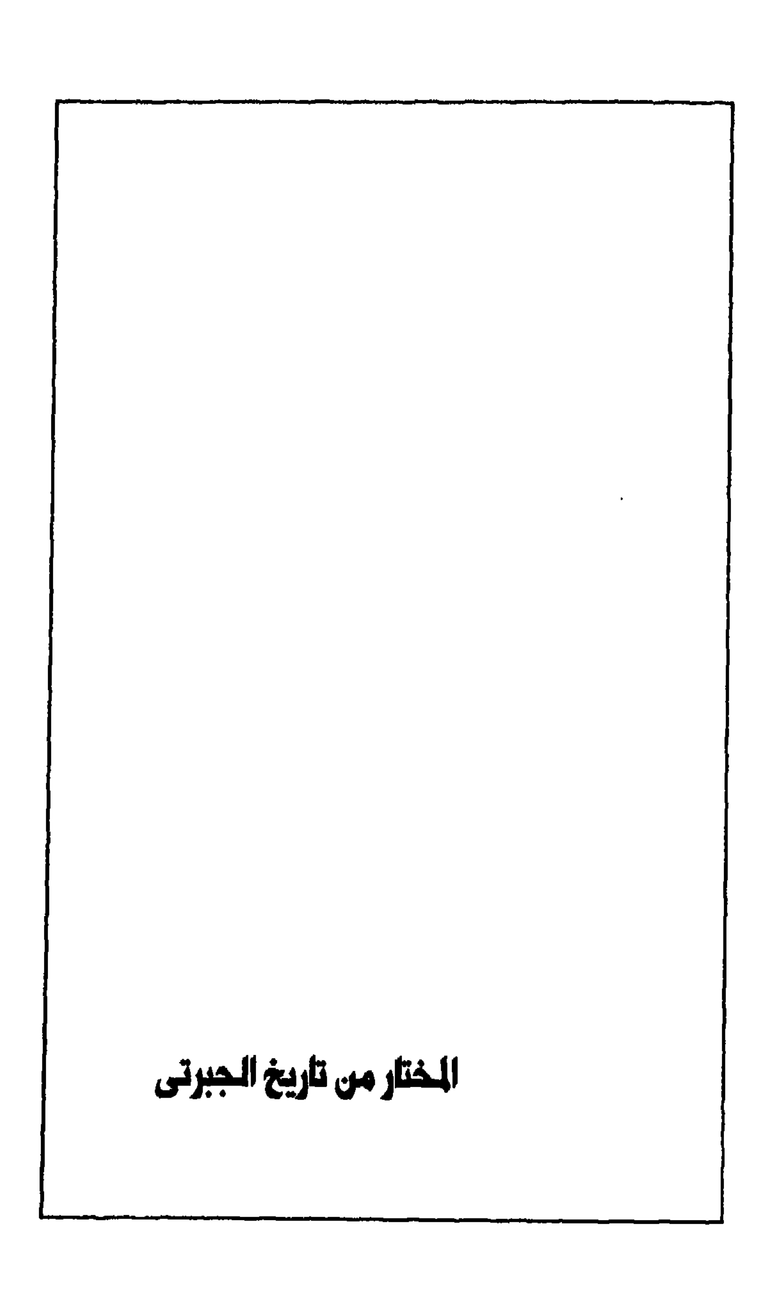




الهيئة المصرية العامة للكتاب



اهداءات ١٩٩٨
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة



المختار من تاريخ الجبرتى



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

المختار من تاريخ الجبرتى
لعبد الرحمن الجبرتى

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

المختار من تاريخ الجبرتى

لعبد الرحمن الجبرتى

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

تصدير

هذه مختارت من تاريخ الجبرتى تتضمن أحداث عامين هجريين فقط، وهما اللذان شهدا قدوم الحملة الفرنسية ومقاومة أبناء الشعب لها، أولاً اعتمادا على قوة المماليك، ثم اعتمادا على أنفسهم فيما يسمى بثورة القاهرة الأولى، ثم بالاستعانة بالجيش العثمانى، فيما يسمى بثورة القاهرة الثانية.

والمختارات تركز على حياة الشعب فى تلك الحقبة الحافلة، وترسم الصورة الصادقة التى أخرجها ذلك المؤرخ العبقرى للحياة اليومية وأثر الاضطرابات السياسية فيها، كما تتضمن تعليقات بارعة على حياة الفرنسيين فى مصر والتصادم الحضارى والثقافى الذى أحسه المصريون آنذاك.

إن المختارات لاتعدو أن تكون «نماذج» وحسب لما أبدعه الجبرتى، وهى تدعو كل محب لهذا الوطن أن يعود إلى الكتاب الأصلى (فى دار الكتب) للاطلاع عليه.

مكتبة الأسرة

وهى أولى سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسمية، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب. وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

المحرم

٨ منه (٢٢ يونية ١٧٩٨م):

حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانكليز، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبا أيضا، فانتظر أهل الثغر ما يريدون، وإذا بقايق صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار، فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد ـ والرئيس اذ ذاك فيها والمشار إليه بالابرام والنقض السيد محمد كريم[١] ـ فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسين لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولاندرى أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولاتتمكنون من منعهم فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن فقالت رسل الانكليز «نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على

(١) الغالب علي الظن انه مغربي الأصل استوطنت اسرته الاسكندرية. وكان فى أول أمره قبانيا يزن البضائع اشتهر ذكره حتي أحبه الناس. قلده مراد بيك أمر الديوان والجمارك والثغر.

الثغر لانحتاج منكم إلا الامداد بالماء والزاد بثمنه» فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: «هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل.. فاذهبوا عنا». فعندها عادت رسل الانكليز، وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية... وليقضى الله أمرا كان مفعولا.

ثم إن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويأتى معهم للمحافظة بالثغر.

١٠ منه (٢٤ يونية ١٧٩٨م):

وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الاسكندرية (تفيد ما تقدم).

فلما قرئت هذه المكاتبات بمصر حصل بها اللغط الكثير من الناس، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، وكثرت المقالات والأراجيف.

فى ١٣ منه (٢٧ يونية ١٧٩٨ م).

وردت مكاتبات مضمونها أن المراكب التى وردت الثغر عادت راجعة، فاطمأن الناس، وسكن القيل والقال وأما الأمراء فلم يهتموا بشئ من ذلك، ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنه اذا جاءت جميع الافرنج لايقفون فى مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم!

٢٠ منه (٤يولية ١٧٩٨م):

وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن فى يوم ثامن عشره (٢ يولية ١٧٩٨م) وردت مراكب وعمارات

للفرنسيس كثيرة فأرسوا فى البحر، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل[1] وبعض أهل البلد. فلما نزلوا اليهم عوقوهم عندهم فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمى[2]، وطلعوا إلى البر، ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم اليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة، فلم يستطيعوا مدافعتهم، ولا أمكنهم مما نعتهم ولم يثبتوا لحربهم، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان، ورجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان، ودخلت الافرنج البلد، وانبث فيها الكثير من ذلك العدد[3].

كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون... فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخذون بكل حال، وليس ثم عندهم للقتال استعداد، لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته... طلب أهل الثغر الأمان، فأمنوهم، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم

---

(١) كان القنصل في هذا الوقت ابن أخي «ماجاللون» القنصل السابق لفرنسا في مصر.
(حافظ عوض - فتح مصر الحديث ص ٨٠)

(٢) قرية لصيد السمك صغيرة تبعد حوالي الأربعة الأميال غربي الاسكندرية. وكانت خطة بونابرت توزيع قواته لانزالها إلي البر في جملة مواقع والاستيلاء في وقت واحد علي الاسكندرية ودمياط ثم التوغل من هذين المركزين في الدلتا والوصول إلي القاهرة بسرعة
(دكتور محمد فؤاد شكري - الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ص١٣٤).

(٣) لم يخسر الفرنسيون في فتح الاسكندرية أكثر من نحو أربعين قتيلا، مع ثمانين إلي مائة من اللجرحي.
(حافظ عوض - فتح مصر الحديث ص١٠٤)

انزلوهم، ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد، ورفع بنديراته عليها، وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه، فألزمهم بجمع السلاح واحضاره إليه؛ وأن يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم.

والجوكار ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك، مستديرة فى قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء، توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض.

ولما وردت هذه الأخبار مصر، حصل للناس انزعاج، وعول أكثرهم على الفرار والهجاج.

وأما ما كان من حال الأمراء بمصر، فان ابراهيم بيك ركب إلى قصر العينى وحضر عنده مراد بيك من الجيزة لأنه كان مقيما بها، واجتمع باقى الأمراء والعلماء والقاضى، وتكلموا فى شأن هذا الأمر الحادث، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلى اسلامبول، وأن مراد بيك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحربهم. وانفض المجلس على ذلك، وكتبوا المكاتبة، وأرسلها بكر باشا مع رسوله على طريق البر[1]، ليأته بالترياق من العراق![2] وأخذوا فى الاستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمات فى مدة خمسة أيام، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب مايحتاجون إليه بدون ثمن.

(١) بطريق البر.

(٢) هو مثل شعبي قديم، نصه: «على ما يجي الترياق من العراق، يكون العليل مات!».

ثم ارتحل مراد بيك بعد صلاة الجمعة. وبرز خيامه ووطاقه إلى الجسر الاسود، فمكث به يومين حتى تكامل العسكر وصناجقه وعلى باشا الطرابلسى وناصف باشا ـ فانهم كانوا من أخصائه ومقيمين معه بالجيزة ـ وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود، وسار من البر مع العساكر الخيالة. وأما الرجالة ـ وهم الالداشات القلينجية والأروام والمغاربة ـ فانهم ساروا فى البحر مع الغلايين الصغار التى أنشأها الأمير المذكور.

ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد فى غاية الثخن والمتانة، طولها مائة ذراع وثلاثون ذراعا، لتنصب على البغاز عند برج مغيزل من البر إلى البر لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل ـ وذلك باشارة على باشا ـ وأن يعمل عندها جسر من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع، ظنا منهم أن الأفرنج لايقدرون على محاربتهم فى البر، وأنهم يعبرون فى المراكب ويقاتلونهم وهم فى المراكب، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم فى القتال حتى تأتيهم النجدة.

وكان الأمر بخلاف ذلك.. فان الفرنسيس عندما ملكوا الاسكندرية، ساروا على طريق البر الغربى من غير ممانع. وفى أثناء خروج مراد بيك والحركة .. بدت الوحشة فى الاسواق، وكثر الهرج بين الناس والارجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت الحرامية فى كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشى الناس من المرور فى الطرق والأسواق من المغرب، فنادى الأغا والوالى

بفتح الأسواق والقهاوى ليلا، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين، وذلك لأمرين الأول ـ ذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستئناس.والثانى ـ الخوف من الدخيل فى البلد.

وفى يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد، وخرج أهل تلك البلاد على وجوهم، فذهبوا إلى فوة ونواحيها. والبعض طلب الأمان وقام ببلده وهم العقلاء.

وقد كانت الفرنسيس ـ حين حلولهم بالاسكندرية ـ كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التى يقدمون عليها ... تطمينا لهم. ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة، وحضروا صحبتهم، وحضر منهم جملة إلى بولاق ـ وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو يومين ـ ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس، وهم على شكلهم من كفار مالطة، ويعرفون باللغات.

وصورة ذلك المكتوب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه.

«من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السرعسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى.

فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لايوجد فى كرة الأرض كلها.

«فأما رب العالمين القادر على كل شئ، فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم.

«يا أيها المصريون...

«قد قيل لكم أننى مانزلت بهذا الطرف إلا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح... فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين اننى ماقدمت اليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، واننى - أكثر من المماليك - أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم.

«وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله، وأن الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب... فماذا يميزهم عن غير هم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها: من الجوارى الحسان، والخيل العتاق، والمساكن المفرحة.

«فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك. فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم! ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم.

«ولكن بعونه تعالى، من الآن فصاعدا، لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية، وعن اكتساب

المراتب العالية. فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الامة كلها.

«وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة، والمتجر المتكاثر... وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

«أيها المشايخ والقضاة، والأئمة والجربجية وأعيان البلد..

«قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية(١) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

«ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى، وأعداء أعدائه. أدام الله ملكه.. ومع ذلك أن المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان، غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم.

«طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخيرا! فيصلح حالهم، وتعلى مراتبهم.

«طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد

---

(١) أو «الكفاليرية»، ماخوذة من الكلمة الافرنجية التي تعني «فارس». وهم طائفة - من مخلفات الحروب الصليبية - استقرت في مالطة...

من الفريقين المتحاربين، فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب!

«لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر!

صفر

الأحد غرته (١٥يولية ١٧٩٨م):

وردت الأخبار بأن فى يوم الجمعة ٢٩ من المحرم (١٣ يولية ١٧٩٨م)، التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس، فلم تكن الا ساعة وإنهزم مراد بيك ومن معه. ولم يقع قتال صحيح، وانما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين، واحترقت مراكب مراد بيك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردلى... وكان قد قاتل فى البحر قتالا عجيبا فقدر الله أن علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود فاشتعلت جميعها بالنار. واحترق المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا فى الهواء. فلما عاين ذلك مراد بيك داخله الرعب، وولى منهزما، وترك الأثقال والمدافع، وتبعته عساكره. ونزلت المشاة فى المراكب ورجعوا طالبين مصر.

ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر، فاشتد انزعاج الناس، وركب إبراهيم بيك إلى ساحل بولاق، وحضر الباشا والعلماء ورءوس الناس، وأعملوا رأيهم فى هذا الحادث العظيم فاتفق

رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، ويتولى الاقامة ببولاق إبراهيم بيك وكشافه ومماليكه وقد كانت العلماء عند توجه مراد بيك تجتمع بالأزهر كل يوم، ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية، وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير، ويعملون لهم مجالس بالأزهر... وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء.

الاثنين ٢ منه (١٦ يولية ١٧٩٨م):

حضر مراد بيك إلى بر انبابة، وشرع فى عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل[١]. وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وجماعة من خشداشينه، واحتفل فى ترتيب ذلك وتنظيمه بنفسه هو وعلى باشا الطرابلسى ونصوح باشا ـ وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التى أنشأها بالجيزة، وأوقفها على ساحل انبابة، وشحنها بالعسكر والمدافع فصار البر الغربى والشرقى مملؤين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة.

ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك، فانهم من حين وصول الخبر لهم من الاسكندرية، شرعوا فى نقل أمتعتهم من

(١) كانت قوات مراد بيك تمتد منتشرة من بشتيل وانبابة إلي الاهرامات وكان جيشه يتألف من نحو الخمسين الفا من المماليك وممن انضم إليهم من الانكشارية وغيرهم وهذا عدا العربان الذين تألفت منهم إلي حد كبير ميسرة الجيش الممتدة إلي الاهرامات.

(دكتور محمد فؤاد شكري ـ الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ص١٢٨).

البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التى لايعرفها أحد، واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا فى تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأدوات الارتحال. فلما رأى أهل البلدة منهم ذلك، داخلهم الخوف الكثير والفزع، واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهروب. ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك وزجروهم، وهددوا من أراد النقلة، لما بقى بمصر منهم أحد.

وفى يوم الثلاثاء ٣ منه (١٧ يولية ١٧٩٨م):

نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، وكرروا المناداة بذلك كل يوم. فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبر بولاق.. فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات، يجمعون الدراهم من بعضهم، وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد، ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم مايحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من بعضهم. وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم، وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم، فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشئ يملكه، ولكن لم يسعفهم الدهر.

وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمر والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكارمختلفة.

وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف إلى القلعة، فأنزل منها بيرقا كبيرا أسمته العامة البيرق النبوى، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح، ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك.

وأما مصر، فإنها باقية خالية الطريق، لاتجد بها أحد سوى النساء فى البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لايقدرون على الحركة، فانهم مستترون مع النساء فى بيوتهن. والأسواق مصفرة، والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل من البارود بستين نصفا، والرصاص بتسعين، وغلا جنس أنواع السلاح، وقل وجوده.. وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق، وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر، وأقام غيرهم من الرعايا البعض بالبيوت، والبعض بالزوايا، والبعض فى الخيام.

الجمعة ٦ منه (٢٠ يولية ١٧٩٨م):

وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود

السبت ٧ منه (٢١يولية ١٧٩٨م):

وصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر. ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزائمهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون فى ريشهم، مغترون

بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون فى رويتهم، مغمورون فى غفلتهم. وهذا كله من أسباب ماوقع من خذلانهم وهزيمتهم. وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين، بل أشيع فى عرضى إبراهيم بيك، أنهم قادمون من الجهتين، فلم يأتوا إلا من البر الغربى.

ولما كان وقت القائلة، ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى، وتقدموا إلى ناحية بشتيل - بلدة مجاورة لانبابة - فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس، فكروا عليهم بالخيول. فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمى، وأبلى الفريقان وقتل أيوب بيك الدفتردار[١] وعبد الله كاشف الجرف[٢] وعدة كثيرة من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكهم، وتبعهم طابور من الأفرنج فى نحو الستة آلاف، وكبيره ديزيه الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم.

وأما بونابرته الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعد الهزيمة، وكان بعيدا عن هؤلاء بكثير[٣]. ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع،

(١) مدبر الشئون المالية.
(٢) من البكوات المماليك.
(٣) يقول الاستاذ الرافعي (تاريخ الحركة القومية جـ١ ص٢١٦) «هذا ما رواه الجبرتي عن هذا الدور من المعركة، ولا يمكننا ان نمر علي قوله ان بونابرته الكبير لم يشاهد الواقعة دون أن نبدي شيئا من الدهشة لأنه كيف تصور الجبرتي أن بونابرته لم يشاهد الواقعة مع أنه قائدها وراسم خططها ومدبر الأمر فيها؟ ولاندري من أين جاء الجبرتي أنه لم يحضر إلا بعد الهزيمة وكان بعيدا عن هؤلاء بكثير.. مع أن بونابرت كان في القلب يرقب حركات القتال ويتتبع كل صغيرة وكبيرة فيه... علي اي وجه قلبنا الرواية لا نجد ثبتا لها وكل ما نقوله فيها انها خطأ».

وكذلك العساكر المحاربون البحرية، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناءود من دمياط، وطلعوا إلى انبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم فى المتاريس.

فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال، ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: «يارب ويالطيف ويارجال الله» ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم! فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك، ويقولون لهم «أن الرسول والصحابة والمجاهدين، إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لابرفع الأصوات والصراخ والنباح» فلا يستمعون ولايرجعون عما فيه، ومن يقرأ ومن يسمع! وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى[1] - ومنهم إبراهيم بيك الوالى[2] - وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب، فتزاحموا على المعادى لتكون التعدية من محل واحد - والمراكب قليلة جدا - فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة به على المحاربين. هذا والريح النكباء اشتد هبوبها وأمواج البحر فى قوة اضطرابها، والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين، فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه.

ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بيك انقسم على كيفية

---

(١) يعني جيش إبراهيم بيك الذي كان مرابطا بالبر الشرقي للنيل.

(٢) صهر إبراهيم بيك رئيس المماليك.

معلومة عندهم فى الحرب، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه، ودق طبوله، وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع. واشتد هبوب الريح، وانعقد الغبار، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح، وصمت الأسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت، والسماء عليها سقطت واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة. ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربى[1]، فغرق الكثير من الخيالة فى البحر لاحاطة العدو بهم وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيرا فى أيدى الفرنسيس وملكوا المتاريس. وفر مراد بيك ومن معه إلى الجيزة، فصعد إلى قصره، وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية. وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر انبابة تحت الأرجل. وكان من جملة من ألقى نفسه فى البحر سليمان بيك، المعروف بالأغا، وأخوه إبراهيم بيك الوالى، فأما سليمان بيك فنجا وغرق ابراهيم بك الصغير وهو صهر ابراهيم بيك الكبير.

ولما انهزم العسكر الغربى حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها. وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة، وركب فى الحال إبراهيم بيك والباشا والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى لم يأخذو منها شيئا.

---

(١) يعني جيش مراد بيك لأنه بالبر الغربي.

فأما ابراهيم بيك والباشا والأمراء فساروا إلى جهة العادلية. وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجا أفواجا، وهم جميعا فى غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك، وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله من شر هذا اليوم العصيب، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب.

فلما استقر إبراهيم بيك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه، وكذلك من كان معه من الأمراء فأركبوا النساء: بعضهن على الخيول، وبعضهن على البغال، والبعض على الحمير والجمال، والبعض ماش كالجوارى والخدم. واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر.. البعض بحريمه، والبعض ينجو بنفسه، ولايسأل عن أحد، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه. فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر.. البعض لبلاد الصعيد، والبعض لجهة الشرق - وهم الأكثر - وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لايقدر على الحركة، ممتثلا للقضاء متوقعا للمكروه، وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم فى الغربة.. فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور.

والذى أزعج قلوب الناس بالأكثر أن فى عشاء تلك الليلة، شاع فى الناس أن الأفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها، وكذلك الجيزة، وأن أولهم وصل إل باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء.

وكان السبب فى هذه الاشاعة أن بعض القلينجية، من عسكر مراد بيك الذى كان فى الغليون بمرسى انبابة، لما تحقق الكسرة، أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه. وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى جهة قبلى، فمشوا به قليلا ووقف، لقلة الماء فى الطين. وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضا، فصعد لهيب النارى من جهة الجيزة وبولاق فظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع، وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين.

فلما عاين العامة والرعية ذلك، اشتد ضجرهم وخوفهم، وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم.

والحال أن الجميع لايدرون أى جهة يسلكون، وأى طريق يذهبون، وأى محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه.

وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل، واستمروا على كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع.

فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة، تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذو متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته. فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر بحيث أن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف مابقى فيها بلاشك، لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم، وقد أخذوه صحبتهم.

ولما أصبح يوم الأحد المذكور، والمقيمون لايدرون مايفعل بهم، ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه، ورجع الكثير من الفارين وهم فى أسوأ حال من العرى والفزع... تبين أن الأفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقي، وأن الحريق كان فى المراكب. فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الأفرنج وينتظروا مايكون من جوابهم.. ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم... وآخر صحبته، فغابا وعادا فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة، فقرأها عليه ترجمانه، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان الترجمان: «وأين عظماؤكم ومشايخكم؟ لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم مايكون فيه الراحة؟» وطمنهم وبش فى وجوهم. فقالوا: «نريد أماناً منكم» فقال: «أرسلنا لكم سابقا» يعنون الكتاب المذكور. فقالوا: «وأيضا لأجل اطمئنان الناس» فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها:

«من معسكر الجيزة لأهل مصر..

«اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان.

«ولما حضرنا إلى البر الغربى، خرجوا الينا، فقابلناهم بما يستحقونه، وقتلنا بعضهم، وأسرنا بعضهم. ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى.

الخميس ١٢ منه (٢٦ يولية ١٧٩٨م):

فتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات: مثل الفطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك.

وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة، وخمامير وقهاوى.

وفتح بعض الأفرنج البلديين بيوتا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم فى بلادهم فيشترى الأغنام والدجاج والخضارات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم.. ويطبخه الطباخون، ويصنعون أنواع الأطعمة والحلاوات.

ويعمل على بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم. فاذا مرت طائفة بذلك المكان تريد الاكل دخلوا إلى ذلك المكان، وهو يشتمل على عدة مجالس - دون وأعلى - وعلى كل مجلس علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخل فيها. فيدخلون إلى

مـايريدون من المجـالس، وفى وسطه دكـة من الخـشـب ـ وهى الخـوان التى يوضـع عليـهـا الطعـام، وحـولـهـا كـراسى... فيجلسون عليـهـا، ويأتيهم الفراشوان بالطعام على قوانينهم، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه.

وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم ـ من غير نقص ولازيادة ـ ويذهبون لحالهم.

وفـيـه: تشـفـع أرباب الديوان فى أسـرى المـاليك، فـقـبلوا شفاعتـهم وأطلقوهم، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر، وهم فى أسوأ حال، وعليهم الثياب الزرق المقطعـة، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقرء المجاورين به، ويتكففون المارين. وفى ذلك عبرة للمعتبرين!

الأحد غايته (١٢ اغسطس ١٧٩٨م):

جاء الرائد ليلا إلى الأمراء بالمنصورة، وأخبرهـم بوصـول الافرنج وقربهم منهم فـركبـوا نصف الليل وترفـعوا إلى جـهـة القرين، وتركوا التـجار وأصـحاب الأثقال... فلما طلع النهار حضـر إليـهم جـماعـة من العربان، واتفـقوا مـعـهم على أنهم يحـملونهم إلى القـرين، وحلفـوا لـهم، وعـاهدوهم على أنـهم لايخونوهم.

فلما توسطوا بـهم الطريق، نقضوا عـهدهم وخانوهم، ونهبوا حمولـهم، وتقاسـموا متاعـهم وعروهم من ثيابهم ـ وفيـهم كبير التـجار السـيد أحمد المحروقى، وكان ما يخصه نحو ثلاثمائة ألف ريال فرانسه نقودا ومتجرا من جميع الأصناف الحجازية

- وصنعت العرب معهم مالا خير فيه ولحقهم عسكر الفرنساوية فذهب السيد أحمد المحروقى إلى سارى عسكر وواجهه - وصحبته جماعة من العرب المنافقين - فشكا له ماحل به وباخوانه.. فلامهم على تنقلهم وركونهم إلى المماليك والعرب. ثم قبض على أبى خشبة شيخ بلد القرين، وقال له: «عرفنى عن مكان المنهوبات». فقال: «أرسل معى جماعة إلى القرين». فأرسل معه جماعة دلهم على بعض الأحمال، فأخذها الافرنج ورفعوها، ثم تبعوه إلى محل آخر، فأوهمهم أنه يدخل ويخرج إليهم أحمالا كذلك... فدخل وخرج من مكان أخر وذهب هاربا!

فرجع أولئك العسكر بجمل ونصف جمل لاغير، وقالوا: «هذا الذى وجدناه، والرجل فر من أيدينا» فقال سارى عسكر: «لابد من تحصيل ذلك» فطلبوا منه الاذن فى التوجه إلى مصر، فأصحب معهم عدة من عسكره أوصلوهم إلى مصر، وأمامهم طبل، وهم فى أسوأ حال... وصحبتهم أيضا جماعة من النساء اللاتى كن خرجن ليلة الحادثة، وهن أيضا فى أسوأ حالة... تسكب عند مشاهدتهن العبرات!.

ربيع الأول ٥

الجمعة ٥ منه (١٧ أغسطس ١٧٩٨م):

وفيه: تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الانكليز إلى الثغر الاسكندرية، وأنهم حاربوا مراكب الفرنساوية الراسية بالميناء. وكانت أشيعت هذه الأخبار قبل، وتحدث الناس بها.. فصعب ذلك على الفرنساوية.

واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف، يسمى السيد أحمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون، أنه تحدث بذلك، فأمروا باحضاره وذكروا له ذلك، فقال: «أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني». فأحضروه أيضا وأمروا بقطع لسانيهما أو يدفع كل واحد منهما مائة ريال فرانسة نكالا لهما وزجرا عن الفضول فيما لايعنيهما. فتشفع المشايخ.. فلم يقبلوا. فقال بعضهم أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم... فلم يرضوا. فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى وأحضر مائتى ريال ودفعها فى الحضرة فلما قبضها الوكيل ردها ثانيا إليه، وقال: فرقها على الفقراء. فأظهر أنه فرقها كما أشار، وردها إلى صاحبها... فانكف الناس عن التكلم فى شأن ذلك.

والواقع أن الانكليز حضروا فى اثرهم إلى الثغر، وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم، وأحرقوا القايق الكبير المسمى بنصف الدنيا(١)، وكان به أموالهم وذخائرهم وكان مصفحا بالنحاس الأصفر. واستمر الانكليز بمراكبهم بميناء الأسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس(٢).

(١) بريد البارجة أوريان (الشرق)، ولعلها سميت في مصر (نصف الدنيا) اشارة إلي عظمها أو اشارة إلي أن اسمها (الشرق) ومن الشرق والغرب تتكون الدنيا.
(الرافعي - تاريخ الحركة القومية جـ١ ص٢٣٥)

(٢) كانت تتقدم أسطول الاميرال نلسن عند اقترابه من خليج ابي قير سفينة مصرية. والمرجح أن هذه السفينة كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الاسطول الانجليزي لي مسالك البحر في تلك الجهة، يساعدونه بذلك علي الاسطول الفرنسي.
(الرفعي - تاريخ الحركة القومية جـ١ ص٢٢٠)

الاثنين ١٥ منه (٢٧ اغسطس ١٧٩٨م):

سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية إلى جهة الصعيد وكبيرهم ديزيه، وصحبتهم يعقوب القبطى، ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت.

وفيه: حضر جماعة عسكر الفرنساوية إلى بيت رضوان كاشف بباب الشعرية وصحبتهم ترجمان ومهندس.. فانزعجت زوجته. وكانت قبل ذلك بأيام صالحت على نفسها وبيتها بألف ريال وثلاثمائة ريال، وأخذت منهم ورقة الصقتها على باب دارها، وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها.. واطمأنت.

فلما حضر إليها الجماعة المذكورون قالوا لها: «بلغ صارى عسكر أن عندك أسلحة وملابس للمماليك». فأنكرت ذلك، فقالوا: «لازم من التفتيش». فقالت: «دونكم». فطلعوا إلى مكان وفتحوا مخبأة فوجدوا بها أربعة وعشرين شروالا ويلكات وأمتعة وغير ذلك. ووجدوا فى أسفلها مخبأة أخرى بها عدة كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق بارود وغير ذلك.. فاستخرجوا جميع ذلك، ثم نزلوا إلى تحت السلالم، وفحروا الأرض وأخرجوا منها دراهم كثيرة وحجاب ذهب فى داخله دنانير، ثم أنزلوا صاحبة الدار، ومعها جارية بيضاء، وأخذوهما مع الجوارى السود وذهبوا بهن... فأقمن عندهم ثلاثة أيام، ونهبوا ما وجدوه بالدار من فرش وأمتعة. ثم قرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى، قامت بدفعها... وأطلقوها.

فرجعت إلى دارها. وبسبب هذه الحادثة شددوا فى طلب الأسلحة، ونادوا بذلك، وأنهم بعد ثلاثة أيام يفتشون البيوت... وقال الناس: أن هذه حيلة على نهب البيوت. ثم بطل ذلك.

ربيع الآخر

الخميس ١٦ منه (٢٧ سبتمبر ١٩٨م)

وفيه: أهمل أمر الديوان الذى يحضره المشايخ ببيت قائد أغا فاستمروا أياما يذهبون، فلم يأتهم أحد، فتركوا الذهاب... فلم يطلبوا.

وفيه: شرعوا فى ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا، وكتبوا فى شأن ذلك طومارا وشرطوا فيه شروطا، ورتبوا فيه ستة أنفار من النصارى القبط وستة أنفار من تجار المسلمين، وجعلوا قاضيه الكبير ملطى القبطى الذى كان كاتبا عند أيوب بيك الدفتردار، وفوضوا إليهم القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى. وجعلوا لذلك الديوان قواعد وأركان من البدع السيئة، وكتبوا نسخا من ذلك كثيرة، أرسلوا منها إلى الأعيان، وألصقوا منها نسخا فى مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد، وشرطوا فى ضمنه شروطا، وفى ضمن تلك الشروط شروطا أخرى... بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير، لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية...

ومحصله التحيل على أخذ الأموال. كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك.

فاذا أحضروها، وبينوا وجه تملكهم لها أما بالبيع أو الانتقال لهم بالارث ... لايكتفى بذلك، بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه فى ذلك الطومار. فإن وجد تمسكه مقيدا بالسجل .. طلب منه بعد ذلك الثبوت. ويدفع على ذلك الاشهاد، بعد ثبوته وقبوله، قدرا آخر، ويأخذ بذلك تصحيحا، ويكتب له بعد ذلك تمكين. وينظر بعد ذلك فى قيمته، ويدفع على كل مائة اثنين. فإن لم يكن له حجة، أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد.. فإنها تضبط لديوان الجمهور وتصير من حقوقهم!!

وهذا شئ متعذر وذلك أن الناس إنما وضعوا أيديهم على أملاكهم أما بالشراء، واما بأيلولتها لهم من مورثهم، أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد، أو بحجج أسلافهم ومورثيهم. فاذا طولبوا باثبات مضمونها، تعسر أو تعذر لحادث الموت أو الأسفار، أو ربما حضرت الشهود.. فلم تقبل، فإن قبلت.. فعل به ماذكر.

ومن جملة الشروط مقررات على المواريث والموتى. ومقاديرها متنوعة فى القلة والكثرة.. كقولهم: اذا مات الميت.. يشاورون عليه، ويدفعون معلوما لذلك، ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة فاذا بقيت أكثر من ذلك... ضبطت للديوان أيضا، ولا حق للورثة فيها وأن فتحت على الرسم باذن الديوان.. يدفع على ذلك الاذن مقررا. وكذلك على ثبوت الورثة، ثم عليهم ــ بعد قبض ما يخصهم ــ مقرر . وكذلك من يدعى دينا على الميت... يثبته بديوان الحشريات، ويدفع على اثباته

مقررا، ويأخذ له ورقة يتسلم بها دينه فاذا تسلمه.. دفع مقررا أيضا ومثل ذلك فى الرزق والاطيان بشروط وأنواع، وكيفية أخرى غير ذلك. والهبات والمبايعات والدعاوى، والمنازعات والمشاجرات والاشهادات - الجزئيات والكليات - والمسافر كذلك لايسافر إلا بورقة، ويدفع عليها قدرا. وكذلك المولود اذا ولد... ويقال له «اثبات الحياة». وكذلك المؤجرات، وقبض أجر الأملاك... وغير ذلك.

وفيه: نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعى، ولا يدفنون الموتى إلا فى القرافات البعيدة، والذى ليس له تربة بالقرافة يدفن ميتة فى ترب المماليك. واذا دفنوا يبالغون فى تسفيل الحفر.

ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام، وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة... كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدواه. ويقولون: إن العفونة تنجس بأغوار الأرض. فاذا دخل الشتاء، وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات..خرج ماكان منحبسا فى الأرض من الأبخرة الفاسدة، فيتعفن الهواء، فيحصل الوباء والطاعون.

ومن قولهم أيضا: أن مرض مريض لابد من الاخبار عنه، فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه أن كان مرضه بالطاعون أو بغيره، ثم يرون رأيهم فيه.

الثلاثاء ٢١ منه (٢اكتوبر ١٧٩٨م)

وفيه: سافر أيضا جماعة من الفرنسيس إلى جهة مراد بيك

ومن معه والتقوا معهم وتراموا ساعة ثم انهزموا عنهم وأطمعوهم فى أنفسهم فتتبعوهم إلى أسفل جبل اللاهون ثم خرجوا عليهم على مثل حالهم رجالا، وتراموا معهم وأكمنوا لهم وثبتوا معهم، وظهر عليهم المصريون وقتل من الفرنساوية مقتلة كبيرة.

الجمعة ٢٤ منه (٥أكتوبر ١٧٩٨م):

نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه وذلك ببيت مرزوق بيك بحارة عابدين.

السبت ٢٥ منه (٦أكتوبر ١٧٩٨):

فى صبحه أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قائد أغا بالأزبكية.

فتوجه المشايخ المصرية، والذين حضروا من الثغور والبلاد. وحضر الوجاقات، وأعيان التجار، ونصارى القبط والشوام، ومدبرو الديوان من الفرنسيس، وغيرهم جمعا موفورا.

فلما استقر بهم الجلوس، شرع مالطى القبطى، الذى عملوه قاضيا، فى قراءة فرمان الشروط وفى المناقشة - فابتدر كبير المدبرين فى اخراج طومار آخر، وناوله للترجمان... فنشره وقرأه.

وملخصه ومضمونه: الاخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد. وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد

البعيدة، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا ـ أخذت عن أجداد أهل مصر الأول ولكون قطر مصر بهذه الصفات، طمعت الأمم فى تملكه: فملكه أهل بابل، وملكه اليونانيون، والعرب، والترك الآن. إلا أن دولة الترك شددت فى خرابة، لأنها اذا حصلت الثمرة، قطعت عروقها .. فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس إلا القدر اليسير، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر، وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم.

ثم أن طائفة الفرنساوية ـ بعدما تمهد أمرهم، وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب ـ اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه، واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة، المفعمة جهلا وغباوة! فقدموا وحصل لهم النصرة. ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس، ولم يعاملوا الناس بقسوة، وأن غرضهم تنظيم أمور مصر، واجراء خلجانها التى دثرت، ويصير لها طريقان: طريق إلى البحر الأسود وطريق إلى البحر الأحمر... فيزداد خصبها وريعها، ومنع القوى من ظلم الضعيف، وغير ذلك.. استجلابا لخواطر أهلها، وابقاء للذكر الحسن. فالمناسب من أهلها ترك الشغب واخلاص المودة، وأن هذه الطوائف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة، لأنهم أهل خبرة وعقل... فيسألون عن أمور ضرورية، ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر من ذلك مايليق صنعه..

إلى آخر ماسطروه من الكلام.

قلت: ولم يعجبنى فى هذا التركيب إلا قوله: «المفعمة جهلا

وغباوة» بعد قوله: «اشتاقت أنفسهم». ومنها قوله بعد ذلك: «ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد»... إلى آخر العبارة.

ثم قال الترجمان: «نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيسا عليكم ممتثلين أمره واشارته». فقال بعض الحاضرين: «الشيخ الشرقاوى» فقال:«نو، نو! وإنما ذلك يكون بالقرعة» فعملوا قرعة بأوراق، فطلع الأكثر على الشيخ الشروقاى... فقال: «حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس». فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس، فأذنوا لهم فى الذهاب، وألزموهم بالحضور فى كل يوم.

الاثنين ٢٧ منه (٨ أكتوبر ١٧٩٨م)

اجتمعوا بالديوان، ونادى المنادى فى ذلك اليوم بالأسواق على الناس باحضارهم حجج أملاكهم إلى الديوان والمهلة ثلاثون يوما، فإن تأخر عن الثلاثين يضاعف المقرر. ومهلة البلاد ستون يوما.

ولما تكامل الجميع، شرع مالطى فى قراءة المنشور وتعداد ما به من الشروط مستور. وذكر من ذلك أشياء: منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية وحجج العقارات، وأمر المواريث. وتناقشوا فى ذلك حصة من الزمن، وكتبوا هذه الأربعة أشياء... أرباب ديوان الخاصة، يدبرون رأيهم فى ذلك، وينظرون المناسب والأحسن، وما فيه الراحة لهم وللرعية ثم يعرضون ما دبروه يوم الخميس، وما بين ذلك له مهلة. وانفض المجلس.

جمادى الأولى

الخميس مستهله (١١ أكتوبر ١٧٩٨م)

اجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستأصلوه فى الجملة. فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى ابقاؤها على ترتيبها ونظامها وعرفوهم عن كيفية ذلك، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد. فاستحسنوا ذلك إلا أنهم قالوا: يحتاج إلى ضبط المحاصيل وتقريرها على أمر لايتعداه القضاة ولا نوابهم فقرروا ذلك: وهو أنه إذا كان عشرة آلاف فما دونها يكون على كل ألف ثلاثون نصفا، واذا كان المبلغ مائة يكون على الألف خمسة عشر، فان زاد على ذلك فعشرة واتفقوا على تقرير القضاة ونوابهم على ذلك.

وأما حجج العقارات فانه أمر شاق طويل الذيل فالمناسب فيه والأولى أن يجعلوا عليها دراهم من بادئ الرأى ليسهل تحصلها، ويحسن عليها السكوت. ويكون المحصول أعلى وأدنى وأوسط، وبينوا القدر المناسب بتفصيل الأماكن، وكتبوه وأبقوه حتى يرى الآخرون رأيهم فيه. وانفض الديوان.

وفيه: نودى فى الأسواق بنشر الثياب والأمتعة خمسة عشر يوما، وقيدوا على مشايخ الأخطاط والحارات والقلقات بالفحص والتفتيش، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك.

فتصعد المرأة إلى أعلى الدار، وتخبرهم عن صحة نشرهم الثياب، ثم يذهبون بعد التأكد على أهل المنزل، والتحذير من ترك الفعل.. وكل ذلك لذهاب العفونة الموجبة للطاعون وكتبوا بذلك أوراقا ألصقوها بحيطان الأسواق، على عادتهم فى ذلك.

وفيه: حضر إلى بيت البكرى جم غفير من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من الزمنى والمرضى بالمارستان المنصورى وأوقاف عبد الرحمن كتحدا، وشكوا من قطع رواتبهم وخبزهم، لأن الأوقاف تعطل إيرادها واستولى على نظارتها النصارى القبط والشوام وجعلوا ذلك مغنما لهم فواعدهم على حضورهم الديوان وينهوا شكواهم، ويتشفع لهم... فذهبوا راجعين.

وفيه: قدمت مراكب من جهة الصعيد وفيها عدة من العسكر مجروحون.

وفيه: وضعوا على التلال المحيطة بمصر بيارق بيضا، فأكثر الناس من اللغط، ولم يعلموا سبب ذلك.

الأحد ٤ منه (١٤ أكتوبر ١٧٩٨م):

اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فذكروا أمر المواريث.

فقال مالطى: «يا مشايخ أخبرونا عما تصنعونه فى قسمة المواريث»، فأخبروه بفروض المواريث الشرعية.

فقال: «ومن أين لكم ذلك» فقالوا: «من القرآن» وتلوا عليهم بعض آيات المواريث.

فقال الافرنج: «نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنت، ونفعل كذا وكذا..» بحسب تحسين عقولهم، لأن الولد أقدر على التكسب من البنت.

فقال ميخائيل كحيل الشامي - وهو من أهل الديوان أيضا - «نحن والقبط بقسم لنا مواريثنا المسلمون» ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها.. فسايروهم، ووعدوهم بذلك، وانفضوا.

وفيه: عزلوا محمد أغا المسلماني أغات مستحفظان وجعلوه كتخدا أمير الحج، واستقروا بمصطفى أغا - تابع عبد الرحمن أغا مستحفظان سابقا - عوضا عنه، ونودى بذلك.

الاثنين ٥ منه (١٥ اكتوبر ١٧٩٨م):

عملوا لهم ديوانا وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة، والآيات المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك.

السبت ١٠ منه (٢٠ اكتوبر ١٧٩٨م):

عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقارا: فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة، والأوسط ستة، والأدنى ثلاثة. وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق

والطرق، وأرسلوا منها نسخا للأعيان، وعينوا المهندسين، ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا فى الضبط والأحصاء[1]، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم، وضبط أسماء أربابها.

ولما أشيع ذلك فى الناس، كثر لغطهم واستعظموا ذلك، والبعض استسلم للقضاء فاتنبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك. ووافقهم على ذلك بعض المتعممين[2]، الذى لم ينظر فى عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم!

الاحد ١١ منه (٢١ اكتوبر ١٧٩٨م)

أصبحوا متحزبين، وعلى الجهاد عازمين، وابرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح. وحضر السيد بدر، وصحبته حشرات الحسينية، وزعر الحارات البرانية. ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام: نصر الله دين الاسلام. فذهبوا إلى بيت قاضى العسكر وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضى

(١) انفض الديوان دون أن يستطيع تخفيف فداحة الضرائب التي استحدثها الفرنسيون. لذلك لم يكد ينفض حتي شبت نار الثورة في القاهرة.
(عبد الرحمن الرافعي - الحركة القومية جـ١ ص١١٧).

(١) كان من هؤلاء المتعممين بعض مشايخ الأزهر الذين أغضبهم عدم اشراك بونابرت اياهم في منظمات الحكومة «الوطنية» الجديدة ومؤسساتها، وفضلا عن ذلك فقد أصدر السلطان فرمانا يحرض المسلمين علي القيام ضد الكفرة الفرنسين. كما أن زعيمي المماليك «مراد وابراهيم» ظلا يبعثان بالرسل إلي الأزهر لتحريك الفتنة.
(دكتور فؤاد شكري - عبد الله جاك مينو ص١١٢)

العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابة، فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر.

وفى ذلك الوقت حضر دبوى بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه، فمر بشارع الغورية، وعطف على خط الصنادقية وذهب إلى بيت القاضى، فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة، وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة، فبادروا إليه وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه. فعند ذلك أخذالمسلمون حذرهم، وخرجوا يهرعون ومن كل حدب ينسلون، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة: كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها، ولم يتعدوا جهة سواها، وهدموا مساطب الحوانيت، وجعلوا أحجارها متاريس للكرانكة، لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة. ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس. وأما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية فلم يفزع منها فازع، ولم يتحرك منها أحد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر.

ولم تزل طائفة المحاربين فى الأزقة متترسين. فوصل جماعة من الفرنساوية، وظهروا من ناحية المناخلية وبندقوا على متراس الشوائين، وبه جماعة من مغاربة الفحامين، فقاتلوهم حتى أجلوهم، وعن المناخلية أزالوهم.

وعند ذلك زاد الحال، وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحد، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب... فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات، وسبوا النساء والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات. وأكثروا من المعايب، ولم يفكروا فى العواقب... وباتوا تلك الليلة سهرانين، وعلى هذا الحال مستمرين.

وأما الأفرنج فانهم أصبحوا مستعدين(١) وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات، ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين.

وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها، ومل من المطاولة. هذا والرمى متتابع من الجهتين، وتضاعف الحال ضعفين... حتى مضى وقت العصر، وزاد القهر والحصر. فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين: كسوق الغورية، والفحامين. فلما سقط عليهم

---

(١) صدرت التعليمات إلي الجنرال «بون» لمهاجمة حي الأزهر واطلاق مدافعه علي الجامع الأزهر اذا اقتضي الأمر ذلك. كما عهد إلي الجنرال دومارتان بمحاصرة الجامع وقطع السبل المؤدية إليه.
(دكتور فؤاد شكري - عبد الله جاك مينو ص١١٢).

ذلك ورأوه، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه، نادوا: «ياسلام من هذه الآلام، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف!». وهربوا من كل سوق، ودخلوا فى الشقوق. وتتابع الرمى من القلعة والكيمان.. حتى تزعزعت الأركان، وهدمت فى مرورها حيطان الدور، وسقطت فى بعض القصور، ونزلت فى البيوت والوكائل، وأصمت الآذان بصوتها الهائل.

فلما عظم هذا الخطب، وزاد الحال والكرب.. ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل، ويكفهم ـ كما انكف المسلمون ـ عن القتال. والحرب خدعة وسجال!

فلما ذهبوا إليه، واجتمعوا عليه ـ عاتبهم فى التأخير، وإتهمهم بالتقصير، فاعتذروا إليه، فقبل عذرهم، وأمر برفع الرمى عنهم، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك.

وتسامع الناس بذلك، فردت فيهم الحرارة، وتسابقوا لبعضهم بالبشارة، واطمأنت منهم القلوب ـ وكل الوقت قبل الغروب ـ وانقضى النهار، وأقبل الليل، فغلب على الظن أن القضية لها ذيل.

وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية، فلم يزالوا مستمرين، وعلى الرمى والقتال ملازمين. ولكن خانهم المقصود، وفرغ منهم البارود. والأفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع.. بالقنابر والمدافع.. إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات، وفرغت من عندهم الأدوات، فعجزوا عن ذلك، وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا.

وبعد هجمة من الليل، دخل الأفرنج المدينة كالسيل، ومروراً في الأزقة والشوارع، لا يوجد لهم ممانع.. كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس. ودخل طائفة من باب البرقية، ومشوا إلى الغورية، وكروا، ورجعوا، وترددوا، وما هجعوا. وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين. وتراسلوا إرسالاً - ركباناً ورجالاً - ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر، وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول. وتفوقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه!

الثلاثاء ١٣ منه (٢٣ أكتوبر ١٧٩٨م) :

في الصباح اصطف منهم حزب بباب الجامع.. فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعاً ويسارع. وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي أفواجاً، واتخذوا السعي والطواف بها منهاجاً، وأحاطوا بها إحاطة السوار، ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب. وخرج سكان تلك الجهة يهرعون، وللنجاة بأنفسهم طالبون. وانتهكوا حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، ويرغب الناس في سكناها

ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع. والفرنساوية لا يمرون بها إلا فى النادر، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر. فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع، وانخفض - على غير القياس - المرفوع. ثم ترددوا فى الأسواق، ووقفوا صفوفاً مئيناً وألوفاً. فإن مر بهم أحد فتشوه، وأخذوا ما معه، وربما قتلوه. ورفعوا القتلى والمطروحين من الأفرنج والمسلمين، ووقف جماعة من الفرنسيس، ونظفوا مراكز المتاريس، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة، ووضعوها فى ناحية، لتصير طرق المرور خالية.

وتحزبت نصارى الشوام، وجماعة أيضاً من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية، ليشكوا لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الرزية. واغتنموا الفرصة فى المسلمين، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين، وضربوا فيهم المضارب، وكأنهم شاركوا الأفرنج فى النوائب! وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين إليهم.. مع أن المسلمين الذين جاوروهم، نهبهم الزعر أيضاً وسلبوهم. وكذلك خان الملايات المعلوم، الذى عند باب حارة الروم، وفيه بضائع المسلمين، وودائع الغائبين.. فسكت المصاب على غصته، واستعوض الله فى قضيته، لأنه إن تكلم لا تسمع دعواه، ولا يلتفت إلى شكواه!

وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح أو اختلس، وبث أعوانه فى الجهات، يتجسسون فى الطرقات، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم، فيحكم فيهم بمراده، ويعمل برأيه واجتهاده، ويأخذ

منهم الكثير، ويركب فى موكبه ويسير.. وهم موثقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال، فيودعونهم السجونات، ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقررونهم بالعقاب والضرب، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب. ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض.

وكذلك فعل مثل ما فعله.. اللعين الأغا، وتجبر فى أفعاله وطغا. وكثير من الناس ذبحوهم، وفى بحر النيل قذفوهم.

ومات فى هذين اليومين، وما بعدهما، أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله. وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم.

واتهم أيضاً إبراهيم أفندى كاتب البهار، بأنه جمع له جمعاً من الشطار، وأعطاهم الأسلحة والمساوق - وكان عنده عدة من المماليك المخفيين، والرجال المعدودين - فقبضوا عليه، وحبسوه ببيت الأغا.

الأحد ١٨ منه (٢٨ أكتوبر ١٧٩٨م) :

توجه شيخ السادات وباقى المشايخ إلى بيت صارى عسكر الفرنسيس، وتشفعوا عنده فى الجماعة المسجونين ببيت الأغا وقائمقام والقلعة. فقيل لهم: «وسعوا بالكم ولا تستعجلوا».. فقاموا وانصرفوا.

وفيه: نادوا فى الأسواق بالأمان، ولا أحد يشوش على أحد.. مع استمرار القبض على الناس، وكبس البيوت بأدنى

شبهة. ورد بعضهم الأمتعة التي نهبت للنصارى.

وفيه: توسط عمر القلقجي لمغاربة الفحامين، وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة، وعرضهم على صارى عسكر. فاختار منهم الشباب وأولى القوة، وأعطاهم سلاحاً وآلات حرب، ورتبهم عسكراً - ورئيسهم عمر المذكور - وخرجوا وأمامهم الطبل الشامى على عادة عسكر المغاربة، وسافروا إلى جهة بحرى.. بسبب أن بعض البلاد قام على عسكر الفرنساوية وقت الفتنة.. وقاتلوهم، وضربوا أيضاً مركبين بهما عدة من عساكرهم فحاربوهم وقاتلوهم.

فلما ذهب أولئك المغاربة سكنوا الفتنة وضربوا عشما[1] وقتلوا كبيرها - المسمي بابن شعير - ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه - وكان شيئا كثيرا جدا - وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوهم، ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخا عوضا عن أبيهم.

وسكن العسكر المغربى بدار عند باب سعادة ورتبوا لهم من الفرنسيس جماعة يأتون إليهم فى كل يوم، ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم، ومعنى اشاراتهم فى مصافاتهم. فيقف المعلم - والمتعلمون مقابلون له صفا وبأيديهم بنادقهم - فيشير إليهم بألفاظ بلغتهم، كأن يقول: «مرديوش»، فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها، ثم يقول: «مرش»، فيمشون صفوفا ... إلى غير ذلك.

(١) هي الآن تابعة لمركز الشهداء منوفية.

وفيه سافر برطلمين إلى ناحية الرجاء ضم الكلمة، ومعه جملة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق.. فلم يدركهم ، وأخذ من فى البلاد، وعسف فى تحصيلها، ورجع بعد أيام.

الأربعاء ٢١ منه (٣١ اكتوبر ١٧٩٨م):

خاطب الشيخ محمد المهدى صارى عسكر فى أمر إبراهيم أفندى كاتب البهار، وتلطف به بمعونة بوسليك المعروف بمدبر الحدود - وهو عبارة عن الروزنامجى - ونقله من بيت الأغا إلى داره وطلبوا منه قائمة كشف عما يتعلق بالماليك بدفتر البهار.

الخميس ٢٢ منه (أول نوفمبر ١٧٩٨م):

سافر عدة من المراكب نحو الأربعين بها عسكر الفرنسيس إلى جهة بحرى.

السبت ٢٤ منه (٣ نوفمبر ١٧٩٨م):

وفى مدة هذه الأيام ... بطل الاجتماع بالديوان المعتاد، وأخذوا فى الاهتمام بتحصين النواحى والجهات، وبنوا أبنية على التلول المحيطة بالبلد، ووضعوا بها عدة مدافع وقنابر، وهدموا أماكن بالجيزة، وحصنوها تحصينا زائدا، وكذلك مصر العتيقة ونواحى شبرا. وهدموا عدة مساجد: منها المساجد المجاورة لقنطرة انبابة الرمة، ومسجد المقس - المعروف الآن بأولاد عنان - على الخليج الناصرى بباب البحر. وقطعوا نخيلا كثيرا وأشجارا، لعمل الحصون والمتاريس،

وهدموا جامع الكازرونى بالروضة وأشجار الجيزة التى عند أبى هريرة... قطعوها، وحفروا هناك خنادق كثيرة... وغير ذلك وقطعوا نخيل الحلى وبولاق، وخربوا دورا كثيرة، وكسروا شبابيكها وأبوابها، وأخذوا أخشابها لاحتياج العمل، والوقود، وغير ذلك.

الاحد ٢٥ منه (٤ نوفمبر ١٧٩٨م):

حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكرى نصف الليل، وطلبوا المشايخ المحبوسين عند صارى عسكر ليتحدث معهم. فلما صاروا خارج الدار وجدوا عدة كبيرة فى انتظارهم فقبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت قائمقام بدرب الجماميز - وهو الذى كان به ديوى قائمقام المقتول، وسكنه بعده الذى تولى مكانه - فلما وصلوا بهم هناك عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة... فسجنوهم إلى الصباح، فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياما.

وفى ذلك اليوم: ركب بعض المشايخ إلى مصطفى بيك، كتخدا الباشا، وكلموه فى أن يذهب معهم إلى صارى عسكر، ويشفع معهم فى الجماعة المذكورين... ظنا منهم أنهم فى قيد الحياة. فركب معهم إليه، وكلموه فى ذلك، فقال لهم الترجمان: «اصبروا ماهذا وقته»! وتركهم، وقام ليذهب فى بعض أشغاله. فنهض الجماعة أيضا وركبوا إلى دورهم.

الثلاثاء ٢٧ منه (٦نوفمبر ١٧٩٨م):

حضر عدة من عسكر الفرنسيس ووقفوا بحارة الأزهر

فتخيل الناس منهم المكروه، ووقعت فيهم كرشة، وأغلقوا الدكاكين، وتسابقوا إلى الهروب وذهبوا إلى البيوت والمساجد. واختلفت آراؤهم، ورأوا فى ذلك أقضية بحسب تخمينهم وظنهم وفساد مخيلهم فذهب بعض المشايخ إلى صارى عسكر وأخبروه بذلك، وتخوف الناس فأرسل إليهم وأمرهم بالذهاب.. فذهبوا وتراجع الناس، وفتحوا الدكاكين، ومر الأغا والوالى وبرطلمين ينادون بالأمان. وسكن الحال وقيل أن بعض كبرائهم حضر عند القلق الساكن بالمشهد، وجلس عنده حصة وهؤلاء كانوا أتباعه ووقفوا ينتظرونه. ولعل ذلك قصدا للتخويف والارهاب خشية من قيام فتنة لما أشيع قتل المشايخ المذكورين وهو الأرجح.

وفيه: كتبوا أوراقا وألصقوها بالأسواق تتضمن العفو والتحذير من اثارة الفتنة، وأن من قتل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيس.

وفيه: شرعوا فى احصاء الأملاك والمطالبة بالمقرر. فلم يعارض فى ذلك معارض، ولم يتفوه بكلمة والذى لم يرض بالتوت يرضى بحطبه!

وفيه أيضا: قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة غير النافذة، وهى التى كانت تركت وسومح أصحابها، وبرطلوا عليها، وصالحوا عليها قبل الحادثة، وبرطلوا القلقات والوسايط على ابقائها، وكذلك دروب الحسينية فلما انقضت هذه الحادثة، ارتجعوا عليها وقلعوها ونقلوها... إلى ما جمعوه

من البوابات بالأزبكية ثم كسروا جميعها وفصلوا أخشابها الرجاء مراعاة المساحة بين الكلمتين ورفعوا بعضها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنواحى والجهات وباعوا بعضها حطبا للوقود، وكذلك ما بها من الحديد وغيره.

الخميس ٢٩ منه (٨ نوفمبر ١٧٩٨م):

هجم المنسر على بوابة سوق طولون وكسروها، وعبروا منها إلى السوق فكسروا القناديل وفتحوا ثلاثة حوانيت وأخذوا ما بها من متاع المغاربة التجار، وقتلوا القلق الذى هناك، وخرجوا بدون مدافع ولامنازع!

وفيه: ذهب المشايخ إلى صارى عسكر وتشفعوا فى ابن الجوسقى سيخ العميان الذى قتل أبوه - وكان معوقا ببيت البكرى - فشفعهم فيه وأطلقوه.

جمادى الآخرة

السبت مستهله (١٠ نوفمبر ١٧٩٨م):

كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخا بالأسواق والشوارع[١] وصورتها:

«نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة: نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض بالفساد... نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس... حركوا الشرور بين الرعية

(١) عبارة «علي لسان المشايخ» لايفهم منها أن المشايخ قد كتبوها حقا، أو اقروها...

وبين العساكر الفرنساوية، بعد ما كانوا أصحابا وأحبابا بالسوية وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين، ونهبت بعض البيوت. ولكن حصلت ألطاف بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته. وارتفعت هذه البلية... لأنه رجل كامل العقل، عنده رحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة إلى الفقراء والمساكين! ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة، ونهبت جميع الأموال، وقتلوا كامل أهل مصر.

«فعليكم ألا تحركوا الفتن، ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولاتتبعوا العقول الذين لا يقرأون العواقب... لأجل أن تحفظوا أوطانكم، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فإن الله سبحان وتعالى يؤتى ملكه من يشاء، ويحكم مايريد!

«ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة... قتلوا عن آخرهم! وأراح الله منهم العباد والبلاد.

«ونصيحتنا لكم: ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذى عليكم .. والدين النصيحة، والسلام!»

وفيه: أمروا بقية السكان على بركة الأزبكية وما حولها بالنقلة من البيوت ليسكنوا بها جماعتهم المتباعدين منهم ليكون الكل فى حومة واحدة. وذلك لما داخلهم من المسلمين... حتى أن الشخص منهم صار لايمشى بدون سلاح، بعد أن كانوا من حين دخولهم البلد لايمشون به أصلا إلا لغرض والذى لم يكن

معه سلاح يأخذ في يده عصا أوسوطا أو نحو ذلك.

وتنافرت قلوبهم من المسلمين، وتحذروا منهم. وانكف المسلمون عن الخروج والمرور بالأسواق من الغروب إلى طلوع النهار.

ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية: كَفَرلي المسمى بأبى خشبة، وهو يمشى بها بدون معين، ويصعد الدرج، ويهبط منها أسرع من الصحيح، ويركب الفرس ويرمحه، وهو على هذه الحالة، وكان من جملة المشار إليهم فيهم، والمدبر لأمور القلاع وصفوف الحروب، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد.

كان يسكن ببيت مصطفى كاشف طرا. وفى وقت الحادثة هجمت على الدار.. العامة، ونهبوها وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفر الباقون. فأخبروا من بالقلعة الكبيرة. فنزل منهم عدة وافرة، وقف بعضهم خارج الدار بعد أن طردوا المزدحمين ببابها وضربوهم بالبندق، ودخل الباقون فقتلوا من وجدوه بها من المسلمين، وكانوا جملة كثيرة.

وكان بتلك الدار شئ كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة، والآلات الفلكية والهندسية، والعلوم الرياضية، وغير ذلك مما هو معدوم النظير .. كل آلة لايعرف قيمتها إلا من يعرف صنعتها ومنفعتها. فبدد ذلك كله العامة، وكسروه قطعا، وصعب ذلك على الفرنسيس جدا. وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات.

وممن قتل فى وقعة هذه الدار، الشيخ محمد الزهار.

الأربعاء ٥ منه (١٤ نوفمبر ١٧٩٨م):

أفرجوا عن ابراهيم أفندى كاتب البهار وتوجه إلى بيته.

السبت ٨ منه (١٧ نوفمبر ١٧٩٨م):

قتلوا أربعة أنفار من القبط منهم اثنان من النجارين قيل انهم سكروا فى الخمارة ومروا فى سكرهم وفتحوا بعض الدكاكين وسرقوا منها أشياء وقد تكرر منهم ذلك عدة مرات، فاغتاظ بذلك القبطة..

وفى تلك الليلة: طاف منهم أنفار بالأسواق ومعهم مقاطف بها لحوم مسمومة فأطعموها للكلاب فمات منها جملة كثيرة. فلما طلع النهار وجد الناس الكلاب مرمية وطرحى بالأسواق وهى موتى، فاستأجروا لها من أخرجها إلى الكيمان. وسبب ذلك أنهم لما كانوا يمرون بالأسواق فى الليل، وهم سكوت، كانت الكلاب تنبحهم وتعدو وخلفهم. ففعلوا بها ذلك، وارتاحوا هم والناس منها.

الأربعاء ٢٦ منه (٥ ديسمبر ١٧٩٨م):

سافر عدة عساكر إلى جهة مراد بيك، وكذلك إلى جهة كرداسه [١] بسبب العربان، وكذلك إلى السويس والصالحية. وأخذوا جمال السائقين بروايها وحميرهم، ولكن يعطونهم أجرتهم، فشح المآء وغلا، وبلغت القربة عشرة أنصاف فضة.

وفيه: ظفروا بعدة ودائع وخبايا بأماكن متعددة بها صناديق

---

(١) مركز الجيزة.

وأمتعة وأسلحة وأوانى صينى وأوانى نحاس.. قناطير، وغير ذلك.

وانقضى هذا الشهر وما حصل به من الحوادث الكلية والجزئية التى لا يمكن ضبطها لكثرتها، منها: أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة متنزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل من يدخل اليه قدرا مخصوصا يدفعه، أو يكون مأذونا وبيده ورقة. ومنها أنهم هدموا وبنوا بالمقياس والروضة، وهدموا أماكن بالجيزة، ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون، وجعلوا فى أعلاه طاحونا تدور فى الهواء عجيبة، وتطحن الأرادب من البر، وهى بأربعة أحجار. وطاحونا أخرى بالروضة تجاه مساطب النشاب.

وهدموا الجامع المجاور لقنطرة الدكة، وشرعوا فى ردم جهات حوالى بركة الأزبكية، وهدموا الأماكن المقابلة لبيت صارى عسكر.. حتى جعلوها رحبة متسعة. وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى والجنائن التى خلف ذلك، وقطعوا أشجارها، وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين.. مبتدئا من حد بيت صارى عسكر، إلى قنطرة المغربى. وجددوا القنطرة المذكورة ـ وكانت آلت إلى السقوط ـ وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق، بحيث صار جسرا عظيما ممتدا ممهدا، مستويا على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق، وينقسم بقرب بولاق قسمين: قسما إلى طريق أبى العلا، وقسما يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل، وبطريقة..

الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلا وجامع الخطيرى إلى ناحية المدابغ.

وحفروا فى جانبى ذلك الجسر، من مبدأة إلى منتهاه، خندقين، وغرسوا بجانبه أشجارا وسيسبانا، وأحدثوا طريقا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى، عند المكان المعروف بالشيخ شعيب، حيث معمل الفواخير، وردموا جسرا ممتدا ممهدا مستطيلا، يبتدئ من الحد المذكور، وينتهى إلى جهة المذبح خارج الحسينية. وأزالوا ما يتخلل بين ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلول، وقطعوا جانبا كبيرا من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب، وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى، وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار، المقابل لجسر بركة الرطلى، وأشجار الجسر أيضا، والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس. وساروا على المنخفض. بحيث صارت طريقا ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر، المعروفة بقبة العزب، جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين، وقيدوا بذلك أنفارا منهم يتعهدون تلك الطرق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول والبغال والحمير..

وفعلوا هذا الشغل الكبير، والفعل العظيم فى أقرب زمن. ولم يسخروا أحدا فى العمل، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة. ويصرفونهم من بعد الظهيرة، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ، السهلة التناول، المساعدة فى العمل وقلة الكلفة.

::

كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف، يملأها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين، ويدفعها أمامه، فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة، إلى محل العمل، فيميلها باحدى يديه، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة. وكذلك لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة، متقنة الوضع وغالب الصناع من جنسهم، ولا يقطعون الأحجار والأخشاب الا بالطرق الهندسية، على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة.

وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة. ومنارته برجا. ووضعوا على أسواره مدافع وأسكنوا به جماعة من العسكر، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به.

وكان هذا الجامع معطل الشعائر من مدة طويلة، وباع نظارة منه انقاضا وعمدا كثيرة.

ومنها أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية، أبنية وكرانك وأبراجا. ووضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه، وهدموا عدة دور من دور الأمراء، وأخذوا أنقاضها ورخامها لابنيتهم.

وأفردوا للمدبرين والفلكيين، وأهل المعرفة والعلوم الرياضية: كالهندسة، والهيئة، والنقوشات، والرسومات، والمصورين، والكتبه، والحساب، والمنشئين.. حارة الناصرية،

حيث الدرب الجديد وما به من البيوت، مثل بيت قاسم بيك، وأمير الحج المعروف بأبى يوسف، وبيت حسن كاشف جركس القديم، والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه، وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد... وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة، ففر مع الفارين، وتركه - فيه جملة كبيرة من كتبهم، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة، فيراجعون فيها مرادهم.

فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، ويجلسون فى فسحه المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختات عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها له الخازن... فيتصفحون، ويراجعون، ويكتبون، حتى أسافلهم من العساكر. وإذا حضر إليهم بعض المسلمين، ممن يريد الفرجة. لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم. ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئة إليهم. وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف، بذلوا له مودتهم ومحبتهم. ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد، والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدماء، وسير الأمم. وقصص الأنبياء بتصاويرهم وأياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم، مما يحير الأفكار.

ولقد ذهبت إليهم مرارا، وأطلعوانى على ذلك.. فمن جملة ما رأيته، كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم

واجتهادهم وهو قائم على قدميه، ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة، وبيده اليمنى السيف، وفى اليسرى الكتاب، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين، وفى الأخرى صورة المعراج والبراق، وهو - صلى الله عليه وسلم - راكب عليه من صخرة بيت المقدس، وصورة بيت المقدس، والحرم المكى والمدنى... وكذلك صورة الأئمة المجتهدين، وبقية الخلفاء والسلاطين...

ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كأيا صوفية، وجامع السلطان محمد، وهيئة المولد النبوى، وجمعية أصناف الناس لذلك وكذلك السلطان سليمان. وهيئة صلاة الجمعة فيه، وأبى أيوب الأنصارى. وهيئة صلاة الجنازة فيه.. وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام، وبرابى الصعيد. والصور والأشكال، والأقلام المرسومة بها.

وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب، وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال.

وكثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم.

ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم «شفاء شريف». والبردة للبوصيرى. ويحفظون جملة من أبياتها، وترجموه بلغتهم.

ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن. ولهم تطلع زائد للعلوم، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات، واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ويدأبون فى ذلك الليل والنهار.

وعندهم كـتب مـفـردة لأنواع اللغـات. وتصـاريفـهـا واشـتـقاقاتهـا: بحيث يسـهل عليهم نقل مايريدون من أى لغة كانت. إلى لغتهم فى أقرب وقت.

وعند «توت» الفلكى وتلامـذته، فى مكانهم المخـتص بهم، الدلالات الفلكية الـغـريبة الكتقنه الصنعة وآلات الارتفـاعـات البديعة، العجيبة التركيب، الغالية الثمن، المصنوعة من الصـفر المموه، وهى تركب ببراريهم مصنوعة محكمة: كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضـها البعض برباطات وبراريم لطيفة، بحيث اذا ركـبت صـارت آلة كـبـيـرة أخـذت قـدرا من الفـراغ، وبـها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى واذا انحل تركيبها وضـعت فى ظرف صـغـير.. وكذلك نظارات للنظر فـى الكواكب وأرصـادهـا، ومـعـرفـة مـقـاديرهـا وأجـرامـهـا وارتفـاعـاتهـا واتصـالاتها ومناظراتها، وأنواع النكابات والساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل، الغالية الثمن... وغير ذلك.

وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شئ: ومنهم «أريجو» المصور، وهو يصور صور الآدمـيين تصـويرا يظن من يراه أنه بارز فى الفـراغ، مـجـسم يكاد ينطق حتى أنه صور صورة المشايخ، كل واحد على حدته، فى دائرة، وكـذلك غـيرهم من الأعـيـان وعلقـوا ذلك فى بعض مـجالس صـارى عسكر وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحـشـرات، وآخـر يصـور الأسـمـاك والحـيـتـان بأنواعـهـا وأسمائها.

ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب، الذى لايوجد ببلادهم، فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم، فيبقى على حالته وهيئته: لايتغيير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا.

وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين، وصناع الدقائق . وسكن الحكيم «رويا» ببيت ذى الفقاركتخدا بجوار ذلك، ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية، وركب له تنانير وكوانين... لتقطير المياه والأدهان، واستخراج الأملاح، وقدورا عظيمة وبرامات، وجعل له مكانا أسفل وأعلى، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين، والزجاجات المتنوعة. وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية.

وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح، وتقاطير المياه وخلاصات المفردات، وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات. واستخراخ المياه الجلاءة والحلالة وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات.

ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان، أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا فى كأس. ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فعلا الماءان، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس. وصار حجرا أصفر، فقلبه على

البرجات حجرا يابسا، أخذناه.. بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض، ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه، فضحكوا منا. وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر، ضيقة الفم، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب، مصفح الداخل بالرصاص، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها. وأنزلهما فى الماء، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحداهما. وأتى آخر بفتيلة مشتعلة، وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء، وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا... وغير ذلك أمور كثيرة، وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع.

ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شئ كثيف، ويظهر له صوت وطقطقة. وإذا مسك علاقتها شخص - ولو خيطا لطيفا متصلا به - ولمس آخر الزجاجة الدائرة، أو ماقرب منها بيده الأخرى... ارتج بدنه، وارتعد جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ومن لمس هذا اللامس، أو شيئا من ثيابه، أو شيئا متصلا به.. حصل له ذلك، ولو كانوا ألفا أو أكثر ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة، ينتج منها نتائج لاتسعها عقول أمثالنا!

وأفردوا أيضا مكان للنجارين وصناع الآلات والأخشاب

وطواحين الهواء والعربيات واللوازم لهم فى أشغالهم وهندساتهم وأربابا صنائعهم.

ومكان آخر للحدادين وبنوا فيه كوانين عظاما، وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلا كثيرا، بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة. وصنعوا السندانات والمطارق العظام، لصناعات الآلات من الحديد والمخارط وركبوا مخارط عظيمة لخرط الفلوزات الحديد العظيمة، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأقلام المتينة الجافية، وعليها حق صغير معلق مثقوب، وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة، مثل البركارات وآلات الساعات. والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك.

رجب

٣ منه (١١ ديسمبر ١٧٩٨):

قتلوا شخصا من الأجناد يقال له مصطفى كاشف من جماعة حسين بيك المعروف بشفت.

وكان قد فر مع الفارين، ثم رجع من غير استئذان وأقام أياما مستترا ببيت الشيخ سليمان الفيومى، فسلمه لمصطفى أغا مستحفظان ليأخذ له أمانا، فأخبر الفرنسيس بشأنه، وأغراهم عليه فأمروه بقتله... فقطع رأسه وطافوا بها ينادون عليها بقولهم: هذا جزء من يدخل إلى مصر بغير اذن الفرنسيس.

شعبان

فى مستهلكه الثلاثاء (٨ يناير ١٧٩٩م):

قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم من المتسلقين على الدور.

وفيه: أخبر السفار بأن مراد بيك ومن معه ترقعوا إلى قبلى ووصلوا إلى عقبة الهواء. وكلما قرب منهم عسكر الفرنساوية انتقلوا وقبلوا. ولقد داخلهم من الفرنساوية خوف شديد ولم يقع بينهم ملاقاة ولاقتال.

وفيه: قدمت رياعة تحمل البن الذى حضر من السويس بالمركب الدوا بصحبة جماعة من الفرنساوية لخفارتها من قطاع الطريق.

ومن طبعهم فى الشرب، أنهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس فإن زادوا عن ذلك الحد، لايخرجون من منازلهم. ومن سكر وخرج إلى السوق ووقع منه أمر مخل، عاقبوه وعزروه.

ومنها: ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود، وركوبهم الخيول. وتقلدهم بالسيوف... بسبب خدمتهم للفرنسيس! ومشيهم الخيلاء، وتجاهرهم بفاحش القول، واستذلالهم المسلمين.. كل ذلك بما كسبت أيديهم. وما ربك بظلام للعبيد!

والحال... الحال! والمركوز فى الطبع مازال، والبعض إستهوته الشيطاين، ومرق - والعياذ بالله - من الدين ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

ومنها: تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربيا - يقال له الشيخ الكيلانى - كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف. ولما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز، وأنهم ملكوا الديار المصرية - انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم، وجردوا الكعبة. وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس، ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك.. فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين، وركبوا البحر إلى القصير.. مع من انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه. فورد الخبر فى أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد، وبعض أتراك ومغاربة... ممن كان خرج معهم مع غزو مصر عند وقعة امبابة. وركب الغز معهم أيضا، وحاربوا الفرنسيس، فلم تثبت الغز كعادتهم. وانهزموا، وتبعهم هوارة الصعيد، والمتجمعة من القرى وثبت الحجازيون، ثم انكفوا لقلتهم، وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية اسنا، وصحبتهم حسن بيك الجداوى. وعثمان بيك حسن تابعه.

ووقع أهل بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعد مواضع وينفصل الفريقان بدون طائل.

ومنها: أن الفرنسيس عملوا كرنتيلة بجزيرة بولاق، وبنوا هناك بناء فيحجزون بها القادمين من السفار أياما معدودة... كل جهة من الجهات القبلية والبحرية بحسبها. والله أعلم.

رمضان

الأربعاء أوله (٦ فبراير ١٧٩٩):

أخذ بونابرته فى الاهتمام بالسفر إلى جهة الشام، وجهزوا طلبا كثيرا، وصاروا فى كل يوم تخرج منهم طائفة بعد طائفة.

السبت ٤ منه (٩فبراير ١٧٩٩):

عمل صارى عسكر ديوانا، وأحضر المشايخ والوجاات وتكلم معهم فى أمر خروجه للسفر، وأنهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد، وأنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقطعونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق، ومشى القوافل والتجارات برا وبحرا، لعمار القطر وصلاح الأحوال، وأننا نغيب عنكم شهرا ثم نعود. وعند عودنا نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك.. فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات... كل كبير يضبط طائفته، خوفا من الفتن، مع العسكر المقيمين بمصر.

فالتزموا له بذلك، وكتبوا له أوراقا مطبوعة على العادة فى معنى ذلك، وألصقوها بالطرق.

وفيه: خرج القاضى ومصطفى، كتخدا الباشا، والمشايخ المعينون للسفر إلى جهة العادلية وخرج أيضا عدة كبيرة من عسكرهم، ومعهم أحمال كثيرة... حتى الأسرة والفرش والحصر، وعدة مواهى ومحفات للنساء والجوارى البيض

والسود والجيوش اللاتى أخذوهن من بيوت الأمراء، وتزيا أكثرهن بزى نسائهم الأفرنجيات... وغير ذلك.

ذو الحجة

٢ منه (٧ مايو ١٧٩٩م):

خرج نحو الألف من عسكر الفرنسيس للمحافظة على البلاد الشرقية لتجمع العرب والمماليك على الألفى، وكذلك تجمع الكثير من الفرنسيس وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها ما فعلوا فى بنى عدى من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربى يدعى المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرا فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد. فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية واستمر أياما كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحى وتفترق. والمغربى المذكور وتارة يغرب وتارة يشرق.

وفيه: أشيع أن الألفى حضر إلى بلاد الشرقية وقاتل من بها من الفرنسيس ثم ارتحا إلى الجزيرة.

٧ منه (١٢ مايو ١٧٩٩م) :

حضر جماعة من فرنسيس الشام إلى الكرانتيلة بالعادلية وفيهم مجاريح وأخبر عنهم بعضهم أن الحرب لم تزل قائمة بينهم وبين أحمد باشا بعكا وأن مهندس حروبهم المعروف بأبى خشبة عند العامة واسمه كفر للى» مات وحزنوا لموته لأنه كان

من دهاتهم وشياطينهم وكان له معرفة بتدبير الحروب القتال وأقدام عند المصاف مع ما ينضم لذلك من معرفة الأبنية وكيفية وضعها وكيفية أخذ القلاع ومحاصرته.

٩ منه (١٤ مايو ١٧٩٩م):

كان عيد النحر، وكان حقه يوم الخميس. وعند الغروب من تلك الليلية ضربوا مدافع من القلعة اعلاما بالعيد وكانت عند الشروق ولم يقع فى ذلك العيد أضحية على العادة لعدم المواشى ولكونها محجوزة فى الكرنتيلة والناس فى شغل عن ذلك.

ومن الحوادث فى ذلك اليوم: أن رجلا روميا من باعة الرقيق عنده غلام مملوك ساكن فى طبقة بوكالة ذى الفقار بالجمالية خرج لصلاة العيد ورجع إلى طبقته فوجد ذلك الغلام متقلد بسلاح ومنزييا بمثل ملابس القليونجية فقال له «من أين لك هذا اللباس» فقال: «من عند جارنا فلان العسكرى» فأمره بنزع ذلك فلم يستمع له ولم ينزعها فشتمه ولطمه على وجهه فخرج من الطبقة وحدثته نفسه بقتل سيده ورجع يريد ذلك فوجد عند سيده ضيفا فلم يتجاسر عليه لحضور ذلك الضيف فوقف خارج الباب ورآه سيده فعرف من عينيه الغدر فلما قام ذلك الضيف قام معه وخرج وأغلق الباب على الغلام فصعد الغلام على السطح وتسلق إلى سطح آخر، ثم تدلى بحبل إلى أسفل الخان وخرج إلى السوق وسيفه مسلول بيده ويقول: «الجهاد يامسلمين! اذبحوا الفرنسيس!» ونحو ذلك من الكلام.

ومر جهة الغورية فصادف ثلاثة أشخاص من الفرنسيس، فقتل منهم شخصا وهرب الاثنان ورجع على أثره والناس يعدون خلفه من بعد إلى أن وصل إلى درب بالجمالية غير نافذ فدخله وعبر إلى دار وجدها مفتوحة وربها واقف على بابها. والفرنسيس تجمع منهم طائفة وظنوا ظنونا أخر وبادروا إلى القلاع وحضرت منهم طائفة من القلق يسألون عن ذلك المملوك.

وهاجت العامة ورمحت الصغار وأغلق بعض الناس حوانيتهم. ثم لم تزل الفرنسيس تسأل عن ذلك المملوك والناس يقولون لهم ذهب من هنا حتى وصلوا إلى ذلك الدرب فدخلوه. فلما أحس بهم نزع ثيابه وتدلى ببئر فى تلك الدار، فدخلوا الدار وأخرجوه من البئر وأخذوه وسكنت الفتنة فسألوه عن أمره وما السبب فى فعله ذلك؟ فقال: «أنه يوم الأضحية فأحببت أن أضحى على الفرنسيس». وسألوه عن السلاح فقال: «أنه سلاحى». فحبسوه لينظروا فى أمره، وطلبوا سيده فوجدوه عند الشيخ المهدى وأخذوا بعض جماعة من أهل الخان ثم أطلقوهم بدون ضرر وأخذوا سيده من عند المهدى. وحبسوه وحضر الأغا وبرطلمين إلى الخان بعد العشاء وطلبوا البواب والخانجى والجيران وصعدوا إلى الطباق وفتشوا على السلاح حتى قلعوا البلاط فلم يجدوا شيئا. وأرادوا فتح الحواصل فمنهم السيد أحمد بن محمود محرم فخرجوا وأخذوا معهم الخانجى وجيران الطبقة وجملة أنفار وحبسوهم أيضا وقتلوا المملوك فى ثانى يوم. واستمر الجماعة فى الحبس إلى أن أطلقوهم بعد أيام عديدة من الحادثة.

سنة ١٢١٤ هجرية

المحرم

الأربعاء أول (٥ يونيه ١٧٩٩م):

حضر جماعة من الفرنسيس إلى العادلية فضربوا خمسة مدافع لقدومهم.

الخميس ٢ منه (٦ يونيه ١٧٩٩م):

عملوا الديوان وأبرزوا مكتوبا مترجما ونسخته صورة جواب من العرضى قدام عكا:

في سابع عشرين فريبال، الموافق عشر شهر الحجة سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف من بونابرته سارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلى محفل ديوان مصر. نخبركم عن سفره من بر الشام إلى مصر فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضى من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوما وجائب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق. ومحقت سراية الجزار وسور عكا. وبالقنبر هدمت البلد ما أبقيت فيها حجرا على حجر وجميع سكانها انهزموا من البلد إلى طريق البحر. ولجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت. ومن جملة ثلاثين مركبا موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا. وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع، والذى أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا

والباقى تلف وتبهدل والغالب منهم عدم. وانى بغاية الشوق إلى مشاهدتكم لأنى بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم.. لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر فى وقت دخولى . كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس. ومنتورة مات من نشويش هذا الرجل صعب علينا جدا، والسلام».

(ومنتورة هذا ترجمان سارى عسكر وكان لبيبا متبحرا ويعرف باللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى)

ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا، وعزموا على الرجوع إلى مصر. أرسل بونابرته مكاتبة إلى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها : «أن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سببا:

١- الاقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلى أن جاءت الانكليز وحصنوا عكا باصطلاح الأفرنج.

٢- الستة مراكب التى توجهت من الاسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الانكليز قدام يافا.

٣- الطاعون الذى وقع فى العسكر ويموت كل يوم خمسون وستون عسكريا.

٤- عدم الميرة لخربات البلاد قريب عكا.

٥- وقعة مراد بيك مع الفرنساوية فى الصعيد، مات فيها

مقدار ثلثمائة فرنساوى.

٦- بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلانى لناحية الصعيد.

٧- المغربى محمد الذى صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب.

٨- ورود الانكليز تجاه الاسكندرية ودمياط.

٩- ورود عمارة الموسقو قدام رودس.

١٠- ورود خبر نقض الصلح بين الفرنساوية والنيمساء (كذا).

١١- ورود جواب مكتوب منا لتيبو أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا لعكا.

(وتيبو هذا هو الذى كان حضر إلى اسلامبول بالهدية التى من جملتها طائران يتكلمان بالهندية، والسرير والمنبر من خشب العود. وطلب منه الامداد والمعاونة على الانكليز المحاربين له فى بلاده. فوعدوه ومنوه، وكتبوا له أوراقا وأوامر وحضر إلى مصر. وذلك فى سنة ١٢٠٢هـ أيام السلطان عبدالحميد - وقد سبقت الاشارة إليه فى حوادث تلك السنة - وهو رجل كان مقعدا يحمله أتباعه فى تخت لطيف بديع الصنعة على أعناقهم. ثم أنه توجه إلى بلاد فرانسة، واجتمع بسلطانها، وذلك قبل حضوره إلى مصر، واتفق معه على أمر بالسر لم يطلع عليه أحد غيرهما. ورجع إلى بلاده على طريق

القلزم. فلما قدم الفرنساوية لمصر كاتبه كبيرهم بذلك السر، لأنه اطلع عليه عند قيام الجمهور وتملكه خزانة كتب السلطان. ثم ان تيبو المذكور بقى فى حرب الانكليز إلى أن ظفروا به فى هذه السنة وقتلوه وثلاثة من أولاده.. فهذا هو ملخص معنى السبب..).

١٢- موت كفرلى الذى عملت المتاريس بمقتضى رأيه. واذ تولى أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر. وكفرللى هذا هو المعروف بأبى خشبة المهندس.

١٣- سماع أن رجلا يقال له مصطفى باشا أخذه الانكليز من اسلامبول ومرادهم أن يرموه على بر مصر.

١٤- أن الجزار أنزل ثقله بمراكب الانجليز وعزم على أنه عندما تملك البلد ينزل فى مراكبهم ويهرب معهم.

١٥- لزوم محاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب».

الثلاثاء ٧ منه (١١ يونية ١٧٩٩م):

حضر جماعة أيضا من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل إلى الصاحبة وأرسل دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك.

الجمعة ١٠ منه (١٤ يونيه ١٧٩٩م):

فى هذا الليلة أرسلوا إلى المشايخ والوجاقات وغيرهم فاجتمعوا بالازبكية وقت الفجر بالمشاعل ودقت الطبول وحضر

الحكام والقلقات بمواكب وطبور وزمور ونوبات تركية وطبول شامية، وملازمون وجيويشية وغير ذلك، وحضر الوكيل وقائمقام وأكابر عساكرهم وركبوا جميعا بالترتيب من الأزبكية إلى أن خرجوا إلى العادلية فقابلوا سارى عسكر بونابرته هناك وسلموا عليه ودخل معهم إلى مصر من باب النصر بموكب هائل بعساكرهم وطبولهم وزمورهم وخيولهم وعرباتهم ونسائهم وأطفالهم فى نحو خمس ساعات من النهار إلى أن وصل إلى داره بالأزبكية وانقض الجمع وضربوا عدة مدافع عند دخولهم المدينة.

وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين، واصفرت ألوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوما حربا مستقيما ليلا ونهارا، وأبلى أحمد باشا وعسكره بلاءحسنا، وشهد له الخصم.

ربيع الأول

الجمعة ٢٨ منه (٣٠ أغسطس ١٧٩٩م):

وفيه : ورد من «بونابارته» ، سارى عسكر الفرنساوية كتاب من الاسكندرية خطابا لأهل مصر وسكانها فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب مضمونه: أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين (٢٣ أغسطس ١٧٩٩م) الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره. فانه بلغه خروج عمارتهم ليصفو له ملك مصر، ويقطع دابر المفسدين.

وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة الفرنساوية جميعا «كليبر» سارى عسكر دمياط فتحير الناس وتعجبوا فى كيفية سفره ونزوله البحر، مع وجود مراكب الانجليز، ووقوفهم بالثغر، ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية. صيفا وشتاء.. ولكيفية خلوصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف على حقيقتها.

السبت ٢٩ منه (٣١ أغسطس ١٧٩٩م):

قدم سارى عسكر كليبر، فضربوا لقدومه المدافع من جميع القلاع. وتلقته كبار الفرنساوية وأصاغرهم، وذهب إلى بيت بونابارته الذى كان ساكنا به - وهو بيت الألفى بالأزبكية - وسكن مكانه.

وفى ذلك اليوم قدمت طائفة من العسكر من جهة الشرقية، وصحبتهم منهوبات كثيرة من بلد عصت عليهم، فضربوها ونهبوها ومعهم نحو السبعين من الرجال والاصغار وبعض النساء وهم موثقون بالجبال فسجنوهم بالقلعة.

وفيه: ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه، فلم يجتمعوا به فى ذلك اليوم، ووعدوا إلى الغد، فانصرفوا. وحضروا فى ثانى يوم فقابلوه، فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته، فانه كان بشوشا ويباسط الجلساء ويضحك معهم.

ربيع الآخر

أوله (٢ سبتمبر ١٧٩٩م):

ابتدأو في عمل مولد المشهد الحسيني، وقهروا الناس، وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر ووقود القناديل عشر ليال متوالية آخرها ليلة ثاني عشر (١٣ سبتمبر ١٧٩٩م).

٢٠ منه (٢١ سبتمبر ١٧٩٩م):

نودي بعمل مولد السيد علي البكري، المدفون بجامع الشرايبي بالأزبكية بالقرب من الرويعي، وأمروا الناس بوقود قناديل بالأزقة في تلك الجهات وأذنوا لهم بالذهاب والمجئ ليلا ونهارا من غير حرج.

وقد تقدم ذكر بعض خبر هذا السيد علي، وأنه كان رجلا من البله، وكان يمشي بالاسواق عريانا مكشوف الرأس والسوأتين غالبا، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به واستمر على ذلك مدة سنين. ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى من ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه ـ كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ـ فحجر عليه، ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثيابا، وأظهر للناس أنه أذن له بذلك وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك!

فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه، والانصات إلى تخليطاته وتأويلها بما في نفوسهم. وطفق أخوه المذكور يرغبهم ويبث لهم في كراماته، وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات، وينطق بما في النفوس. فانهمكوا على التراداد اليه، وقلد بعضهم بعضا، وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والامدادات الواسعة من كل شئ ـ وخصوصا من نساء الأمراء والأكابر!

وراج حال أخيه، واتسعت أمواله، ونفقت سلعته، وصادت شبكته، وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة، حتى صار مثل البو العظيم! فلم يزل على ذلك إلى أن مات فى سنة سبع بعد المائتين كما تقدم. فدفنوه بمعرفة أخيه فى قطعة حجر عليها من هذا المسجد من غير مبالاة ولا مانع، وعمل عليه مقصورة ومقاما، وواظب عنده بالمقرئين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه فى قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك. ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوهم على شباكه وأعتابه، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى أعبابهم وجيوبهم!

وهرعت لزيارة قبره النساء والرجال بالنذور وبالشموع وأنواع المأكولات. وصار ذلك المسجد مجمعا وموعدا. فلما حضر الفرنساوية إلى مصر، تشاغل عنه الناس، وأهمل شأنه فى جملة المهملات، وترك مع المتروكات. فلما فتح أمر الموالد والجمعيات، ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات، والتلاهى وفعل المحرمات... أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد جمادى الأول

جمادى الأول

٧ منه (٧ اكتوبر ١٧٩٩):

وفى هذا الشهر كثرت الاشاعة باجتماع عساكر عثمانية

جهة الشام فكثر اهتمام الفرنساوية باخراج الجبخانات والمدافع وآلات الحرب والقومانية والعساكر وتحصين الصالحية والقرين وبلبيس.

رجب

الجمعة أوله (٢٩ نوفمبر ١٧٩٩م):

فيه كثرت الأقوال وتواترت الأخبار بوصول الوزير الأعظم يوسف باشا الديار الشامية وصحبته نصوح باشا وعثمان أغا كتخذا الدولة وحسين أغا نزله أمين، ومصطفى افندى الدفتردار وباقى رجال الدولة وعسفوا فى البلاد الشامية وضربوا عليهم الضرائب العظيمة وجبوا الأموال وفعلوا ما لا خير فيه من الظلم وقتل الأنفس بسبب استخلاص الأموال.

منتصفه (١٣ ديسمبر ١٧٩٩م):

وردت أخبار بوصولهم إلى غزة والعريش وأنهم حاصروا قلعة العريش وقاتلوا من بها من عسكر الفرنساوية حتى ملكوها.

الثلاثاء ١٩ منه (١٧ ديسمبر ١٧٩٩م):

ملكوا قلعة العريش، واحتووا على ما كان فيها من الذخيرة والجبخانة وآلات الحرب. وصعد مصطفى باشا الذى باشر أخذ القلعة مع جملة من العسكر وبعض الأجناد المصرية وضربت النوبة وحصل لهم الفرح العظيم.

واتفق أنه وقعت نار على مكان الجبخانة والبارود المخزون

بالقلعة - وكان شيئا كثيرا - فاشتعلت وطارت القلعة بمن فيها واحترقوا وماتوا وفيهم الباشا المذكور ومن معه ومحمد أغا أرنؤود الجلفي وغيره من المصرلية. ومات كثير ممن كان خارجا عنها وبقربها مما نزل عليهم من النار والأحجار المتطايرة فى أسرع وقت.

ولما تحقق الفرنساوية أخذ العريش، وأن عساكر العثمانيين زاحفة إلى جهة الصالحية تهيأ صارى عسكر الفرنساوية، واستعد للخروج والسفر فى أسرع وقت. وخرج بعساكره وجنوده إلى الصالحية، وقد كان قبل أخذ العثمانيين قلعة العريش أرسل الفرنساوية إلى «سينت» كبير الانكليز مراسلات ليتوسط بينهم وبين العثمانيين. ثم ورد فرمان من حضرة الوزير قبل وصوله الجهة العريش خطابا إلى جمهور الفرنساوية باستدعاء رجلين من رؤسائهن وعقلائهم ليتشاور ويتفق معهم على أمر يكون فيه المصلحة للفريقين على ماسيشترطونه بينهم فوجهوا اليه من طرفهم بوسليك رئيس الكتاب وديزيه سارى عسكر الصعيد فنزلوا فى البحر على دمياط وطالت مدة غيابهم وبعث كليبر سارى عسكر رسلا من طرفه لاستفسار الأخبار.

شعبان

٢٢ منه (١٩ يناير ١٨٠٠م):

ورد الخبر بقدومهما إلى الصالحية. فأرسلوا اليهما

الخيول وما يحتاجان اليه وحضروا إلى مصر وشاع أمر الصلح، وحضر من طرف العثمانيين رئيس الكتاب والدفتردار لتقرير الصلح وجنح كل من الفريقيين إلى ذلك لما فيه من كف الحرب وحقن الدماء، وأظهر الفرنساوية الخداع والخضوع حتى تم عقد الصلح على اثنين وعشرين شرطا رسمت وطبعت في طومار كبير. وورد الخبر بذلك إلى مصر وفرح الناس بذلك فرحا شديدا. وأرسل سارى عسكر الفرنساوية مكاتبة بصورة الحال إلى دوجا قائمقام. فجمع أهل الديوان وقرأ عليهم ذلك. ولما ورد ذلك الظومار المتضمن لعقد الصلح والشروط. وعربوه وطبعوا منه نسخا كثيرة فرقعوا منها على الأعيان وألصقوا منها بالأسواق والشوارع.

وصورته ـ بمافيه من الفصول والشروط بالحرف الواحد ـ ماعدا ترجمة الأسطر التى باللغة الفرنساوية... وهذه صورة الشروط الواقعة لخلو مصر: ما بين حضرة الجنرال ديزيه متفرقة وحضرة بسليغ مدير الحدود العام، نواب سرى العسكر العام كليبر المفوضين بكامل السلطان.. وجناب سامى المقام مصطفى رشيد افندى دفتردار، ومصطفى راسيسه افندى رئيس كتاب الوكلاء، المفوضين بكامل السلطان عن جناب حضرة الوزير سامى المقام:

«أن الجيش الفرنساوى بمصر عندما قصد أن يوضح ما فى نفسه من وفور الشوق لحقن الدماء، ويرى نهاية الخصام المضر الذى قد حصل ما بين المشيخة الفرنساوية والباب العالى ـ فقد ارتضى أن يسلم بخلو الاقليم المصرى بحسب

هذه الشروط الآتى ذكرها.. بأمل أن بهذا التسليم يمكن أن يتجه ذلك إلى الصلح العام فى بلاد المغرب قاطبة:

الشروط الأول: أن الجيش الفرنساوى يلزمه أن يتنحى بالأسلحة والعزال بالأمتعة إلى الاسكندرية ورشيد وأبو قير لأجل أن يتوجه وينتقل بالمراكب إلى فرانسا، ان كان ذلك فى مراكبهم الخاص بهم أم فى تلك التى يقتضى للباب العالى أن يقدمها لهم بقدر الكفاية. ولأجل تجهيز المراكب المذكورة بأقرب نوال، فقد وقع الاتفاق، من بعد مضى شهر واحد من تقرير هذه الشروط، يتوجه إلى قلعة اسكندرية نائب من قبل الباب العالى وصحبته خمسون نفرا.

الشرط الثانى: فلابد عن المهلة وتوقيف الحرب بمدة ثلاثة أشهر بالاقليم المصرى، وذلك من عهد امضاء شروط الاتفاق هذه. واذا صادف الأمر أن هذه المهلة تمضى قبل أن المراكب الواجب تجهيرها من قبل الباب العالى تحضر جاهزة، فالمهلة المذكورة يقتضى مطاولتها إلى أن ينجز الرحيل على التمام والكمال. ومن الواضح أنه لابد عن اصراف الوسايط الممكنة من قبل الفريقيين لكى لا يحصل ما يمكن وقوعه من التجسس، ان كان ذلك من الجيش أم من أهل البلاد، اذا كانت هذه المهلة قد حصل الاتفاق بها لأجل راحتهم.

الشرط الثالث: فرحيل الجيش الفرنساوى يقتضى تدبيره بيد الوكلاء القادمين لهذه الغاية من قبل الباب الأعلى وسرى العسكر كليبر. واذا حصل خصام ما بين الوكلاء المذكورين

بوقت الرحيل فى هذا الصدد، فلينتحب من قبل حضرة «سيدنى سميث» رجل لينهى المخاصمات المذكورة بحسب قواعد السياسة البحرية السالكون عليها ببلاد الانجلين.

رمضان

٢ منه (٢٨ يناير ١٨٠٠م):

حضر سارى عسكر الفرنساوية كليبر إلى ناحية العادلية، وصحبته أغا من رجال الدولة العثمانية يسمى محمد أغا، فأرسل سارى عسكر إلى حسن أغا بخاتى المحتسب يأمره بأن يتلقاه وينزله فى بيته ويكرمه اكراما زائدا. فلما كان بعد العشاء دخل ذلك الأغا إلى مصر فى موكب، فحصل للناس ضجة عظيمة، وازدحموا على مشاهدتهم له والفرجة عليه، وارتفعت أصواتهم، وعلا ضجيجهم وركبوا على مطاطب الدكاكين والسقائف، وانطلقت النساء بالزغاريد من الطيقان، واختلفت آراؤهم فى ذلك القادم، ولم يعلموا من هو. فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائرا حتى وصل إلى بيت حسن أغا بسويقة اللالا فنزل هناك. فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والأعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس.

فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانا وجمع العلماء والوجاقلية وأعيان وكبار النصارى من الأقباط والشوام. فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير فقرئ عليهم بالمجلس فدل مضمونه على أنه أغات الجمارك أى المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة. وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف

الأقوات فيشتريها بالثمن الذى يسعره هو بمعرفة المحتسب ويودعه فى المخازن. وأبرز فرمانا آخر قرئ بالمجلس مضمونه: أن الوزير أقام مصطفى باشا، الذى كان أسر بأبى قير، وكيلا عنه وقائمقام بمصر إلى حين حضوره، وان السيد أحمد المحروقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية. وانقض المجلس على ذلك. وأخذ السيد أحمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس، وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف، وشرعوا فى تحكير الأقوات.. فغلت أسعارها ضاقت مؤن الناس. ودهى الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين. وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات، وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم! واجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة.

فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله، وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر، وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية، ويقول: سنة مباركة. ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة! كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم.

وحض مصطفى باشا من الجيزة وسكن ببيت عبدالرحمن كتخدا بحارة عابدين وأرسل الوزير فرمانات إلى البلاد وعين المعينين والمباشرين بطلب المال والغلال والكلف من الأقاليم وأرسل إلى البنادر وجعل فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وجمعها بالحواصل. ولا يخفى

ما يحصل فى ضمن ذلك من الجزئيات التى سيتضح بعضها فيما بعد.

شوال

الخميس ٢٣ منه (٢٠ مارس ١٨٠٠م):

ركب سارى عسكر كليبر طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير، فمنهم من توجه إلى عرضى الوزير، ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم. فلم يسعهم الا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم. وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية، ولحقوا بالذاهبين من أخوانهم إلى جهة العرضى بالخانكاه بعد أن نهبوا ما فى عرضى ناصف باشا من المتاع والأغنام. وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا إلى جهة العرضى، فلما قاربوه أرسلوا إلى الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات فلم يسعه الا الارتحال، والفرنساوية فى أثره، وغالب عساكه مفرقون ومنتشرون فى البلاد والقرى والنواحى لجمع المال ومقررات الفرض وظلم الفقراء.

وأما أهل مصر فانهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال. فهاجوا ورمحوا إلى أطارف البلد وقتلوا أشخاصا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم، وذهبت شرذمة من عامة أهل مصر فانتهبت الخشب وبعض ماوجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضى الفرنساوية.

وخرج السيد عمر أفندى نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين أغا شنن أخو أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح، وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات، وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف البلد ولهم صياح وضجيج، وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم، وقاموا على ساق وخرج الكثير منهم إلى خارج البلدة على تلك الصورة.

فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشئ لجهلهم أيضا حقيقة الحال ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياخ وجلبة وخلفهم ابراهيم بيك، ثم أخرى وخلفهم سليم أغا، ثم أخرى كذلك وخلفهم عثمان كتخدا الدولة، ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار، وابراهيم كتخدا مراد بيك المعروف بالسنارى، وصحبتهم مماليكهم وأتابعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصولوا إلى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم. فعندما

سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم، ومروا مسرعين يقتلون من يصادفوته من النصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المحاورين لهم، فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ماقدر عليه من العسكر الفرنساوى ـ وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر ـ فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر ويحامون عن أنفسهم. والآخرون يرمون من أسفل ويكسبون الدور ويتسورون عليها. وبات نصوح باشا وكتخذا الدولة وابراهيم بيك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوائف من العساكر بخط الجمالية بوكالة ذى الفقار.

فلما أصبح الصباح ارسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفانية فعالجوها حتى فتحوها وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الأمراء المصرية على أقدامهم وجروا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت الألفى وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية فضربوهم

أيضا بالمدافع والبنادق. واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار. فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر.

وفى هذا اليوم وضع أهل مصر والعسكر متاريس بالأطراف كلها وبجهة الأزبكية، وشرعوا فى بناء بعض جهات السور، واجتهدوا فى تحصين البلد بقدر الطاقة. وبات الناس فى هذه الليلة خلف المتاريس.

فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع ووالوا الضرب بالخصوص على خط الجمالية لكون المعظم مجتمعا بها. فلما عاين ذلك الجميع أجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات.. والقلاع بيد الفرنساوية، ومصر لا يمكن محاصرتها لا تساعها وكثرة أهلها وربما طال الحال فلا يجدون الأقوات لأن غالب قوت أهلها يجلب من قراها فى كل يوم وربما امتنع وصول ذلك اذا تجسمت الفتنة.

فاتفقوا على الخروج بالليل وتسامع الناس بذلك، فتجهز المعظم للخروج وغصت خطة الجمالية وما والاها من الاخطاط بازدحام الناس الذين يريدون الخروج من المدينة وركب بعضهم بعضا وازدحمت تلك النواحى بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال المحملة بالأثقال وباتوا على تلك الصورة ووقع للناس فى هذه الليلة من الكرب والمشقة والأنزعاج والخوف ما لا يوصف.

وتسامع أهل خان الخليلى من الألداشات وبعض مغاربة الفحامين والغورية ذلك، فجاءوا للجمالية، وشنعوا على من يريد الخروج، وعضدهم طائفة عساكر الينكجرية، وعمدوا إلى خيول الأمراء فحبسوها بيت القاضى والوكائل، وأغلقوا باب النصر. وبات فى تلك الليلة معظم الناس على مصاطب الحوانيت، وبعض الأعيان فى بيوت أصحابهم بالجمالية وفى أزقة الحارات أيضا . وكل متهيئ للخروج.

السبت ٢٥ منه (٢٢ مارس ١٨٠٠م):

فى الصباح تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذى لا قوة له للحرب، وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية، وسكن الكثير فى البيوت الخالية، والبعض خلف المتاريس، وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثالثة المتقدمة وجدت مدفونة فى بعض بيوت الأمراء، وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع، من حديد وأحجار، واستعملوها عوضا عن الجلل للمدافع، وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالأزبكية. واستمر عثمان كتخدا بوكالة ذى الفقار بالجمالية. وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى، أخذه وذهب به إلى الجمالية حيث عثمان كتخدا ويأخذ عليه البقشيش. فيحبس البعض حتى يظهر أمره، ويقتل البعض ظلما. وربما قتل العامة من قتلوه، وأتوا برأسه لأجل البقشيش، كذلك كل من قطع رأسا من رءوس الفرنساوية يذهب بها اما لنصوح باشا بالأزبكية، واما لعثمان كتخدا بالجمالية ويأخذ فى مقابلة ذلك الدراهم.

وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وباقى الأبواب التى فى أطراف البلد، وزاد الناس فى اصطناع المتاريس وفى الاحتراس. وجلس عثمان بيك الأشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدابغ، وعثمان بيك طبل عند متاريس المحجر، ومحمد بيك المبدل عند الشيخ ريحان، ومحمد كاشف أيوب وجماعة أيوب بيك الكبير والصغير عند الناصرية، ومصطفى بيك الكبير بقناطر السباع، وسليمان كاشف المحمودى عند سوق السلاح. وأولاد القرافة والعامة، وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طائفة من الينكجرية وباب الحديد وباب القرافة، وجماعة خان الخليلى والجمالية عند باب البرقية المعروف بالغريب.. وبالجملة كل من كان فى حارة من أطراف البلد انضم إلى العسكر الذى بجهته بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وبعض عساكر من العثمانية وما انضم اليهم من أهل مصر المتسلحين مكثت بالجمالية اذا جاء صارخ من جهة من الجهات مكثت بالجمالية اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء. وصار جميع أهل مصر أمابالأزقة ليلا ونهارا وهو من لا يمكنه القتال، واما بالأطراف وراء المتاريس وهو من عنده اقدام وتمكن من الحرب، ولم ينم أحد ببيته سوى الضعيف، والجبان والخائف. وناصف باشا وابراهيم بيك وجماعتهم وعسكر من الينكجرية والأرنؤود والدلاة وغيرهم جهة الأزبكية ناحية باب الهواء والرحبة الواسعة التى عند جامع أزبك والعتبة الزرقاء. وأنشأ عثمان كتخدا معملا للبارود

بيت قائد أغا بخط الخرنفش، وأحضر الفندقدية و[illegible]
والحدادين والسباكين لانشاء مدافع وبنبات و[illegible]
التى وجدوها فى بعض البيوت وعمل العجل والعربات و[illegible]
وغير ذلك من المهمات، وأحضروا لهم ما يحتاجون إليه من
الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا إلى ذلك الحدادين
والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك
فصار هذا كله يصنع ببيت القاضى والخان الذى بجانبه
والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى
واهتم لذلك اهتماما زائدا وأنفق أموالا جمة، وأرسلوا
فأحضروا باقى المدافع الكائنة بالمطرية فكانوا كلما أدخلوا
مدفعا ادخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال
ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات، مثل قولهم: الله ينصر
السلطان. ويهلك فرط الرمان، وغير ذلك.

وحضر محمد بيك الألفى فى ثانى يوم وتترس بناحية السويقة التى عند درب عبدالحق وعطفة البيدق وصحبته طوائفه ومماليكه وأشخاص من العثمانية، وبذل الهمة، وظهرت منه ومن مماليكه شجاعة وكذلك كشافه، وخصوصا اسماعيل كاشف المعروف بأبى قطية - فانه لم يزل يحارب ويزحف حتى ملك ناحية رصيف الخشاب وبيت مراد بيك الذى أصله بيت حسن بيك الأزبكاوى وبيت أحمد أغاشويكار - وتترس فيهما، وحسن بيك الجداوى تترس بناحية الرويعى، وربما فارق متراسه فى بعض الليالى لنصرة جهة أخرى وحضر ايضا رجل مغربى يقال له أنه الذى كان يحارب الفرنسيس بجهة

البحيرة سابقا. والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلانى. وفعل ذلك الرجل المغربى أمورا تنكر عليه لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لايجوز قتله، يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء، ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعا فيما على رأسها وشعرها من الذهب وتتبع الناس عورات بعضهم البعض، وما دعتهم إليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم.

واتهم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة، فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة، ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة، وحصلت له اهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هاله ذلك واغتم غما شديدا ووعده بخير وطيب خاطره، وأخذه سيدى أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم، وأقاموا عنده حتى أنقضت الحادثة. وباشر السيد أحمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب، وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه وأعان بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة.

وأمابولاق فإنها قامت على ساق واحدة وتحزم الحاج

مصطفى البشتيلى وأمثاله وهيجوا العامة، وهيئواعصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا. وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيس الذى تركوه بساحل البحر، وعنده حرسية منهم، فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره، ورجعوا إلى البلد، وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها، وعملوا كرنك جوالى البلد ومتاريس. واستعدوا للحرب والجهاد، وقوى فى رأسهم العناد، واستطالوا على من كان ساكنا ببولاق من نصارى القبط والشوام، فأوقعوا بهم بعض النهب، وربما قتل منهم أشخاص...

هذا ما كان من أمر هؤلاء. وأما ما كان من أمر سارى عسكر الفرنساوية ومن معه... فإنه لما استوثق بهزيمة الوزير، وعدم عوده ونجاته بنفسه.. لم يزل خلفه حتى بعد عن الصالحية، فأبقى بها بعضا من عسكر الفرنسيس محافظين، وكذلك بالقرين وبلبيس، ورجع إلى مصر. وقد بلغت الأخبار بما حصل من دخول ناصف باشا والأمراء وقيام الرعية، فلم يزل حتى وصل إلى داره بالأزبكية، وأحاطت العساكر الفرنساوية بالمدينة وبولاق من خارج، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج... وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة، وقطعوا الجالب عن البلدين، وأحاطوا بهما احاطة السوار بالمعصم. فكانت جماعة من المفوضين لهم، المحصورين داخل المدينة ـ كبعض القبطة ونصارى الشوام وغيرهم ـ

يهربون إليهم، ويتسلقون من الأسوار والحيطان بحريمهم وأولادهم.

فعند ذلك اشتد الحرب، وعظم الكرب وأكثروا من الرمى المتتابع بالمكاحل والمدافع، وأكثروا وأوصلوا وقع القنابر والبنبات، من أعالى التلول والقلعات، خصوصا البنبات الكبار، على الدوام والاستمرار، وأنا الليل وأطراف النهار... فى الغدو والبكور والأسحار.

وعدمت الأقوات، وغلت أسعار المبيعات، وعزت المأكولات، وفقدت الحبوب والغلات، وارتفع وجود الخبز من الأسواق، وامتنع الطوافون به على الأطباق. وسارت العساكر الذين مع الناس فى البلد يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس من المآكل والمشارب. وغلا سعر الماء المأخوذ من الآبار أو الأسبلة... حتى بلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا . وأما البحر فلا يكاد يصل إليه أحد.

وتكفل التجار، ومساتير الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم. فألزموا الشيخ السادات بكلفة الذى عند قناطر الساع، وهم مصطفى بيك ومن معه من العساكر. وأما أكابر القبط - مثل جرجس الجوهرى وفلتيوس ومالطى - فانهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين.. لكونهم انحصروا فى دورهم، وهم فى وسطهم، وخافوا على نهب دورهم اذا خرجوا فارين. فأرسلوا إليهم الأمان. فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء، وأعانوهم بالمال واللوازم.

وأما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين، وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه.

هذا والمناداة فى كل وقت بالعربى والتركى على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس.

واتهم مصطفى أغا مستحفظان بموالاته الفرنساوية وأنه عنده فى بيته جماعة من الفرنسيس فهجمت العساكر على داره بدرب الحجر، فوجدوا أنفارا قليلة من الفرنسيس، فقاتلوا وحاموا عن أنفسهم وقتل منهم البعض، وهرب البعض على حمية، حتى خلصوا إلى الناصرية وأما الأغا فانهم قبضوا عليه، وأحضروه بين يدى عثمان كتخذا، ثم تسلمه الانكشارية وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد. واستقر عوضه شاهين كاشف الساكن بالخرنفش، فاجتهد وشدد على الناس، وكرر المنادة، ومنعهم من دخول الدور. وكل من وجده داخل داره مقته وضربه فكان الناس يبيتون بالأزقة والأسواق، حتى الأمراء والأعيان! وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والدريس... بحيث صار ينادى على الحمار أو البغل، المعدد الذى قيمته ثلاثون ريالا وأكثر، بمائة ونصف فضة، أو ريال واحد أو أقل، ولا يوجد من يشتريه. وفى كل يوم يتضاعف الحال، وتعظم الأهوال.

وزحف المسلمون على جهة رصيف الخشاب، وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور. وكان اسماعيل كاشف الألفى تحصن ببيت أحمد آغا شويكار الذى كان ببيته، وقد كان الفرنساوية جعلوا به لغما بالبارود المدفون، فاشتعل ذلك اللغم، ورفع مافوقه من الأبنة والناس، وطاروا فى الهواء، واحترقوا عن آخرهم، وفيهم اسماعيل كاشف المذكور. وانهدم جميع ما هناك من الدور والمبانى العظيمة والقصور المطلة على البركة، واحترق جميع البيوت التى من عند بين المفارق بقرب جامع عثمان كتخدا، إلى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها، إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفى، سكن سارى عسكر الفرنساوية، وكذلك خطة الفوالة بأسرها، وكذلك خطة الرويعى بالسباطين العظيمين، وما فى ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى وصارت كلها تلالا ،خرائب... كأنها لم تكن مغنى صبابات، ولامواطن أنس ونزاهات!

واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء والكرب، ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع، والهدم والحرق، وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع... مع القحط وفقد المآكل والمشارب، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز، ووقوف حال الناس من البيع والشراء، وتفليس الناس، وعدم وجدان ما ينفقونه، إن وجدوا شيئا!

وفى كل ساعة تهجم العساكر الفرنساوية على جهة من الجهات ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس، فيصيحون على بعضهم بالمناداة ويتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض ويقولون: عليكم بالجهة الفلانية. الحقوا اخوانكم المسلمين! فيرمحون إلى تلك الخطة والمتاريس حتى يجلوهم عنها، وينتقلون إلى غيرها فيفعلون كذلك.

وكان المتحمل لغالب هذه المدافعات حسن بيك الجداوى فإنه كان عندما يبلغه زحف الفرنساوية على جهة من الجهات، يبادر هو ومن معه للذهاب لنصرة تلك الجهة. ورأى الناس من اقدامه وشجاعته وصبره على مجالدة العدو، ليلا ونهارا، ماينبئ عن فضيلة نفس، وقوة قلب، وسمو همه وقل أن وقع حرب فى جهة من الجهات إلا وهو مدير رحاها ورئيس كماتها.

هذا والأغا والوالى يكررون المناداة وكذلك المشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقى والسيد عمر النقيب... يمرون كل وقت، ويأمرون الناس بالقتال، ويحرضونهم على الجهاد. وكذلك بعض العثمانية يطوفون مع أتباع الشرطة، وينادون باللغة التركية مثل ذلك.

وجرى على الناس مالا يسطر فى كتاب، ولم يكن لأحد فى حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته فضلا عن جزئياته.. منها: عدم النوم ليلا ونهارا، وعدم الطمأنينة، وغلو الأقوات، وفقد الكثير منها - خصوصا الأدهان - وتوقع الهلاك كل لحظة، والتكليف بما لايطاق، ومغالبة الجهلاء على العقلاء، وتطاول

السفهاء على الرؤساء، وتهور العامة، ولغط الحرافيش وغير ذلك مما لايمكن حصره. ولم يزل الحال على هذا المنوال إلى نحو عشرة أيام.

كل هذا والرسل من قبل الفرنساوية، وهم عثمان بيك البرديسى تارة، ومصطفى كاشف ورستم تارة أخرى - والاثنان من أتباع مراد بيك - يترددون فى شأن الصلح وخروج العساكر العثمانية من مصر، والتهديد بحرقها وهدمها اذا لم يتم هذا الغرض واستمروا على هذا العناد ثم نصب الفرنساوية فى وسط البركة فسطاطا لطيفا وأقاموا عليه علما وأبطلوا الرمى تلك الليلة، وأرسلوا رسولا من قبلهم إلى الباشا والكتنخدا والأمراء يطلبون المشايخ يتكلمون معهم فى شأن هذا الأمر فأرسلوا الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى وغيرهم فلما وصلوا إلى سارى عسكر وجلسوا، خاطبهم على لسان الترجمان بما حاصله: أن سارى عسكر قد أمن أهل مصر أمانا شافيا، وأن الباشا والكتخدا ومن معهما من العساكر العثمانية يخرجون من مصر ويلحقون بالعرضى. وعلى الفرنساوية القيام بما يحتاجون إليه من المئونة والذخيرة حتى يصلوا إلى معسكرهم. وأما الأجناد المصرية الداخلة معهم فمن أراد منهم المقام بمصر من المماليك والغز الداخلين معهم، فليقم وله الاكرام. ومن أراد الخروج فليخرج. والجرحى من العثمانلى يجردون من سلاحهم، وأن كان يأخذه الكتخدا فليأخذه، وعلينا أن نداويهم حتى يبرأوا. ومن أقام بعد البرء منهم فعلينا مئونته. ومن أراد الخروج بعد برئه فليخرج، وعلى

أهل مصر الأمان فإنهم رعيتنا. وتوافقوا على ذلك وتراضوا عليه.

ذو القعدة

الخميس ٢٢ منه (١٧ ابريل ١٠٠م): الموافق ١٠ برمودة القبطي وسادس نيسان الرومي:

غيمت السماء غيما كثيفا، وأرعدت رعدا مزعجا عنيفا، وأمطرت مطر غزيرا، وسيلت سيلا كثيرا. فسالت المياه فى الجهات ، وتوحلت جميع السكك والطرقات فاشتغل الناس بتجفيف المياه والأوحال ولطخت الأمراء والعساكر بسراويلهم ومراكيبهم بالطين. والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ولم يبالوا بالأمطار لأنهم فى خارج الأفنية وهى لاتتأثر بالمياه كداخل الأبية، وعندهم الاستعداد والتحفظ والخفة فى ملابسهم وما على رؤوسهم. وكذلك أسلحتهم وعددهم وصنائعهم بخلاف المسلمين فلما حصل ذلك اغتنموا الفرصة وهجموا على البلدين من كل ناحية وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التى تشتعل ويقوى لهبها بالماء وكان معظم كبستهم من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريش وجهة بركة الرطلى وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة، فكانوا يرمون المدافع والبنبات من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون، ويهجمون أيضا وأمامهم المدافع، وطائفة خلفهم بواردبة، يقال لهم «البسلطات» يرمون

بالبندق المتتابع، وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف وضرف الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا. والمسلمون أيضا بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم وتحول الأغا وأكثر الناس إلى تلك الجهة وزلزلوا فى ذلك اليوم والليلة زلزالا شديدا وهاجت العامة، وصرخت النساء والصبيان، ونطوا من الحيطان والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة هذا والأمطار تسح حصة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة، وكذلك الرعد والبرق وعثمان بيك الأشقر الابراهيمى وعثمان بيك البرديسى المرادى ومصطفى كاشف رستم يذهبون ويجيئون من الفرنسيس إلى المسلمين، ومن الفرنسيس إليهم ويسعون فى الصلح بين الفريقين.

ثم إنهم هجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة أبى العلا، بالطريقة المذكور بعضها. وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة. واحترقت الأبنية والدور والقصور... وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر وكذلك الأطارف وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية ثم أحاطوا بالبلد ومنعوا من يخرج منها، واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع وملكوا الدور

وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخواندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية ومالاتسعه السطور ولايحيط به كتاب ولا منشور. والذى وجدوه منعكفا فى داره أو طبقته ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه ومضوا وتركوه حيا وأصبح من بقى من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لا يملكون ما يستر عوراتهم.

ذو الحجة

غرته (٢٦ ابريل ١٨٠٠م):

فيه خرج العثمانية وعساكرهم، وابراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه والألفى وأجناده ومعهم السيد عمر مكرم النقيب، والسيد أحمد المحروقى الشاهبندر وكثيرون من أهل مصر ركبانا ومشاة إلى الصالحية، وكذلك حسن بيك الحداوى وأجناده وأما عثمان بيك حسن ومن معه فرجعوا صحبة الوزير، فلم يسع إبراهيم بيك وحسن بيك ترك جماعتهما خلفهما وذهابهم بأنفسهم إلى قبلى، بل رجعا بجماعتهما على أثرهما وذاقوا وبال أمرهم وانكشف الغبار عن تعسة المسلمين وخيبة أمل الذاهبين والمتخلفين وما استفاد الناس من هذه العمارة، وما جرى من الغارة، إلا الخراب والسخام والهباب فكانت مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة، سبعة وثلاثين يوما .. وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج

والشتات والهياج، وخراب الدور، وعظائم الأمور، وقتل الرجال ونهب الأموال، وتسلط الأشرار، وهتك الأحرار، وخصوصا ما أوقع الفرنساوية بالناس بعد ذلك.

رقم الإيداع ٥٩٠٦ / ٩٦
I. S. B. N 977-01-4830-X



مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب